الشيخ عدنان رحمه الله

ما رأيت مشروعا قام على الإخلاص
وعاقت دون تمامه العقبات.

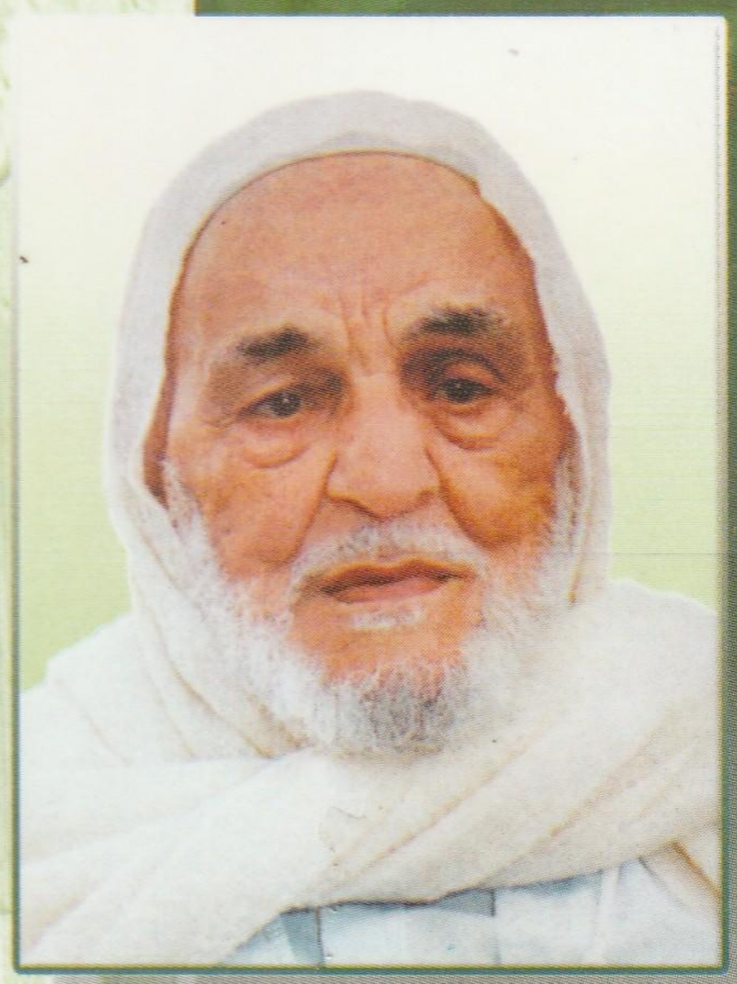

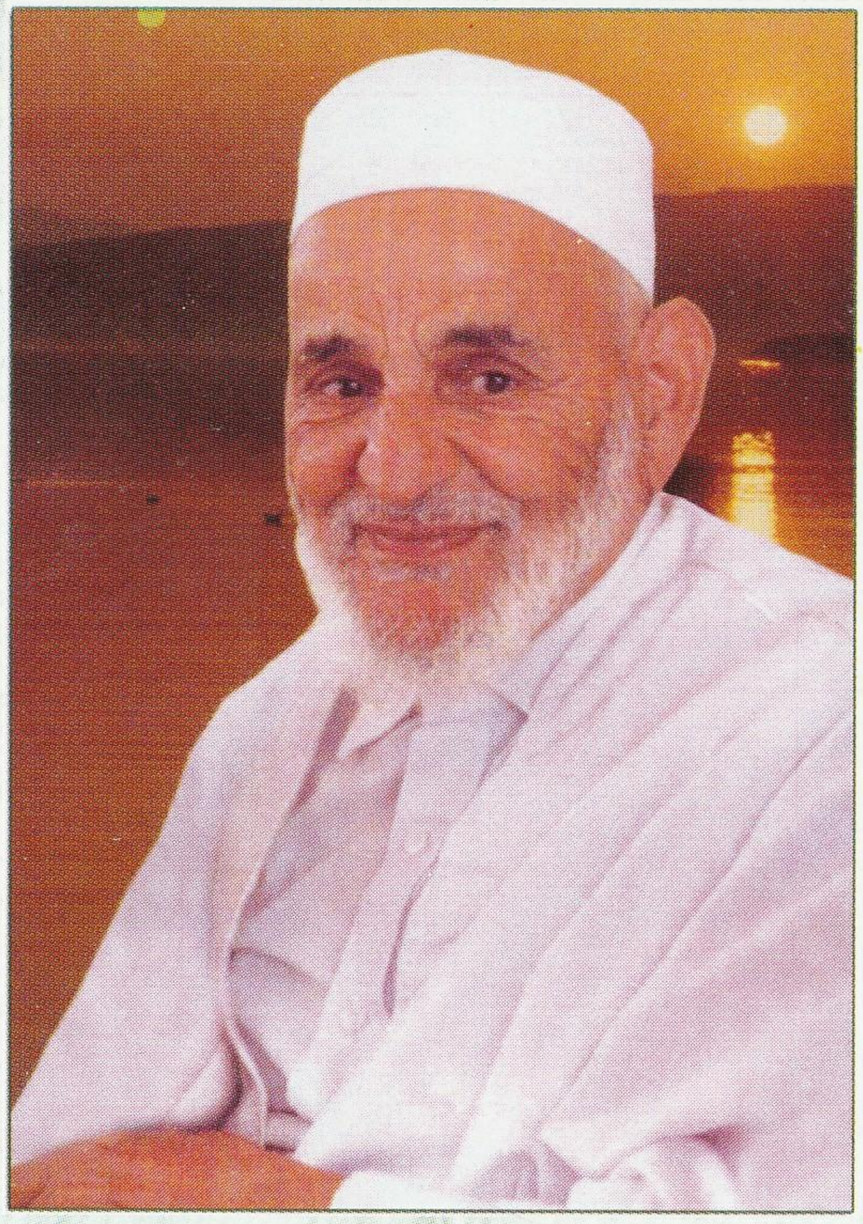

الشيخ عدون

(شريفي سعيد)

مسيرة قرن من الجهاد والإخلاص

بقلم:

د. مصطفى بن صالح باجو

خريج معهد الحياة

أستاذ محاضر بجامعة الأمير عبد القادر

قسنطينة - الجزائر

بسم الله الرحمن الرحيم

معالم رحلة القرن

الاسم واللقب: الاسم: سعيد بن بالحاج بن عدون بن الحاج عمر. اللقب: شريفي.

اسم الشهرة: الشيخ عدون.

المولد: رأى نور الحياة سنة 1319هـ / 1902م بمدينة القرارة، ولاية غرداية. (وادي ميزاب. جنوب الجزائر)

الدراسة: بين سنتي 1910 - 1912 زاول تعَلُّمَه الأول بالقرارة في كُتّاب السيد إسماعيل بن يحكوب، وفي المدرسة الرسمية لدى المعلم الطالب محمد.

وفاة والده: في سنة 1912 توفي والده وبذمته مغارم فبيعت دار سكناه، وكفله خاله أحمد بن الحاج سعيد جهلان.

السفر: في سنة 1912 سافر إلى مدينة سريانه بولاية باتنة للكسب والعمل اضطرارا واحتياجا، وعمره عشر سنوات.

سنوات الغربة: قضى سنوات 1912 - 1915 بمدينة سريانة أجيرا مخلصا في محل تجاري، وتلميذا نجيبا بالمدرسة الرسمية، ولكن لم تسعفه ظروف العمل في الدكان لإجراء الامتحانات فانقطع عن المدرسة.

العودة إلى القرارة: في سنة 1915 عاد إلى القرارة إثر قيام الحرب العالمية الأولى، وانتظم بمدرسة الشيخ محمد بن الحاج إبراهيم قرقر "الطرابلسي"، وختم الربع الأخير من القرآن الكريم.

إلى الغربة من جديد: في سنة 1915 عاد إلى مدينة سريانة ليتفرغ للعمل فقط دون التعلم فكان حاذقا لبيبا كسب ثقة زبائنه ومستخدميه.

وعاد الطائر إلى عشه: في سنة 1919 عاد إلى القرارة للزواج، ودخل مدرسة الشيخ الطرابلسي ثانية، وبعد سبعة أشهر استظهر القرآن الكريم.

الزواج: في سنة 1919 تزوج بالسيدة عائشة بنت الحاج سعيد بن كاسي بسيس. وأنجب منها ثلاثة ذكور وبنتين، ثم توفيت سنة 1956، فتزوج ثانية بالسيدة صفية بنت الحاج صالح خياط، وأنجب منها ابنا وبنتا.

وفاة كافله: في سنة 1920 توفي كافله خاله السيد أحمد بن الحاج سعيد جهلان فتحمل أعباء رعاية أفراد أسرته، رغم تبرمه من مرارة الاغتراب والعمل في التجارة.

دخول حلقة إيروان: في سنة 1920 انخرط في هيئة "إيروان"، التي تضمّ حفظَة القرآن بعد استظهاره للقرآن الكريم.

دخول معهد الحاج عمر بن يحي: في السنة نفسها 1920 دخل معهد الشيخ الحاج عمر بن يحيى طالبا.

التمهيد لمعهد الحياة: بعد وفاة شيخه الحاج عمر بن يحيى سنة 1921. شارك في جلسات متوالية لإصلاح التعليم رفقة الشيخ بيوض، كانت تلك الجلسات منطلق النهضة العلمية المعاصرة بميزاب.

تأسيس معهد الحياة: في سنة 1925 تأسس معهد الحياة "مدرسة الشباب" سابقا بإشراف الشيخ بيوض وتولى الشيخ عدون نظارة المعهد والتدريس به من أول يوم، ثم أصبح مديرا له بداية من الأربعينيات حين تفرغ الشيخ بيوض- رحمه الله - لقضايا الأمة العامة, وظل الشيخ عدون على رأس إدارته إلى يوم وفاته سنة 2004م.

التدريس بالمعهد: تولى التدريس بالمعهد منذ نشأته، واستمر في رسالته أستاذا للغة العربية وعلومها، والأخلاق إلى سنة 1988.

جريدة الشباب: أنشأ السيد حمو بن عمر لقمان جريدة الشباب سنة 1926 باسم "القرارية" ثم تولى الشيخ عدون حمل رايتها بعده بقليل. وهي مجلة يصدرها طلبة المعهد أسبوعيا. وتكوّن منها رصيد مهم يصور مرحلة ذهبية من نشاط وإنتاج طلبة المعهد من الثلاثينيات إلى نهاية خميسينيات القرن العشرين.

جمعية الشباب: أنشأ الجمعيات الأدبية بالمعهد بعد انطلاق المعهد بزمن يسير، وعملت جمعية الشباب على التكوين الثقافي والاجتماعي للطلبة، وتدريبهم في ميادين الخطابة والشعر والإنتاج الأدبي والمناظرات.

الكتابة في صحافة أبي اليقظان: في سنة 1926 شارك بأول مقال في جريدة "وادي ميزاب" بعنوان: «جولة في وادي ميزاب».

إدارة صحافة أبي اليقظان: في سنة 1930 خلف الشيخ أبا اليقظان في إدارة جريدة "المغرب" وأقام مدة شهر في الجزائر لهذه المهمة، ثم خلفه ثانية لمدة سنة كاملة عام 1936. حين كان يصدر جريدة "الأمة".

متابعة دروس التفسير: تابع دروس تفسير القرآن الكريم للعلامة الشيخ بيوض في مسجد القرارة، وقد استمرت تلك الدروس خمسا وأربعين سنة من عام 1935 إلى 1980م، لم يتخلف عنها وهو موجود في القرارة إلا مرة واحدة لمصلحة عامة ضرورية.

إنشاء جمعية الحياة: شارك في تأسيس جمعية الحياة التي ترعى مشروع التعليم بالقرارة، وذلك سنة 1937م، وكان أمين مال الجمعية، وبعد وفاة رئيسها الشيخ بيوض سنة 1981م أصبح رئيسا لها إلى يوم وفاته.

عريف إيروان: في سنة 1938 عين عريفا لحلقة إيروان بالقرارة. وهو المتولّي لتدبير شؤون الحلقة من حفظة القرآن، الذين يعدّون رديف حلقة العزابة في مهامها الدينية.

دخول حلقة العزابة: في سنة 1943 اختير عضوا بحلقة العزابة بالقرارة، ثم أصبح رئيسها بعد وفاة الإمام الشيخ بيوض، وظل كذلك إلى يوم وفاته.

تأسيس نادي الحياة: في سنة 1938 شارك في تأسيس نادي الحياة، وهو نادٍ ثقافي مفتوح للجميع للتدريب في ميادين الخطابة والشعر والتمثيل.

جولات التبرع: 1940 قام بأول جولة لجمع الاشتراكات لصالح جمعية الحياة في الناحية الشرقية للوطن والعاصمة ونواحيها، ثم توقفت الجولة سنة 1943، لظروف الحرب العالمية الثانية، ثم أصبحت جولة سنوية شاملة لنواحي القطر لم ينقطع عنها إلى وفاته سنة 2004م.

تأسيس الكشافة الإسلامية: في سنة 1946 ساهم في تأسيس فرع الكشافة الإسلامية في القرارة، التابع للكشافة الإسلامية الجزائرية.

تأسيس جمعية القدماء: 1948 شارك في تأسيس جمعية قدماء التلاميذ الذين درسوا في معهد الشيخ بيوض، وهي جمعية تهتم بالشؤون العامة الثقافية والاجتماعية لهؤلاء الخريجين.

وحدة التعليم والتفتيش: 1948م عيّن مفتشا عاما للمدارس الخاصة بوادي ميزاب ومدن التل التي أنشأتها جمعيات الإصلاح، وظل في مهمة التفتيش إلى أوائل الثمانينيات.

رئاسة عمي سعيد: في سنة 1989 عيّن رئيسا لمجلس عمي سعيد خلفا للشيخ الحاج محمد بابانو وبقي في منصبه إلى يوم وفاته.

رئاسة الكرثي: في سنوات الثمانينيات أحيى الغيورون على مصالح المجتمع مجلس باعبد الرحمن الكرثي المختص بتدبير شؤون الأمة العامة في مجالات العمران والسياسة، وكان الشيخ عدون رئيس المجلس كذلك.

تأسيس جمعية التراث: في سنة 1989 أسس مع ثلة من أبنائه المخلصين جمعية التراث بولاية غرداية، للحفاظ على التراث الفكري والحضاري لميزاب وإحيائه، وتحقيقه ونشر كنوزه، فكان رئيس الجمعية إلى يوم وفاته. وقد عملت الجمعية قبل ترسيمها لبضع سنين بجهود مخلصة من الباحثين على رأسهم الدكتور محمد ناصر، والشيخ إبراهيم قرادي رحمه الله.

نتاجه وآثاره:

- عشرات المقالات التي أثرى بها جريدة الشباب بمعهد الحياة، وما يناهز مائة وخمسين مقالة كان يرصع بها جرائد الشيخ أبي اليقظان.
- مئات الرسائل المتبادلة مع أقطاب الحركة الإصلاحية، والتي تعد وثائق تاريخية لفترة حاسمة غنية بالأحداث عرفتها الجزائر وميزاب في القرن العشرين.
- آلاف الشباب ممن صنع على عينه، وارتوى من معينه، وصدروا سرجا تنير للناس دروب الحياة. وتوزعوا في أقطار الجزائر وخارجها في مختلف المجالات.
- مئات الدروس التي كان يلقيها في المسجد والمناسبات العامة والخاصة. بعضها مسجل وكثير لم تستوعبه الآلات، وإن وعته الضمائر والقلوب.
- كتاب معهد الحياة نشأته وتطوره.

الرحيل إلى دار الخلود: أسلم الروح إلى بارئها في سحر يوم الثلاثاء 19 رمضان 1425هـ / 2 نوفمبر 2004م وعمره 106 سنة، وشيعت جنازته صبيحة الأربعاء 20 رمضان. هـ / 3 نوفمبر 2004م

في ظلال محطات الرحلة:

هو الشيخ عدون المربي المخلص، والمجاهد الصابر، والدؤوب المثابر، والقائد الرائد، وما شئت من صفات الكمال البشريّ، ممن يصطفى ربك من عباده المخلَصين، فيجعلهم ورثة الأنبياء والمرسلين، ويبؤوهم مراتب الصدّيقين والصالحين.

من مدينة القرارة في صحراء الجزائر الكبرى، وفي أحضان أسرة كريمة كانت نبتة سعيد مع مطلع القرن العشرين، وتحديدا في سنة 1319هـ / 1902م.

❖ المهاد الأول:

ظروف النشأة الأسرية:

لم ينعم سعيد بطفولة هنيئة رغيدة ككثير من لداته، ولم توادعه الحياة ليتمتع ببهجتها وما تمنحه في معتادها لكثير من البراعم الندية، بل سقته علقمها منذ خطواته الأولى، فعرف الفقر واليتم في بواكير عمره، وفقد الوالد الكفيل، ومضى الأب بلا متاع ولا ضياع، فلم يرث منه الابن إلا زاد التقوى والفضيلة، وتنشئة على الخلق والتمسك بأهداب الدين، وديونا بذمة الأب عاجله الموت دون قضائها.

وكانت ميراث سعيد مغارم لا مغانم، وقد احتمل ذلك راضيا بقضاء الله في اجتماع ألَم اليُتْم وهَمّ الدّيْن.

وأدركته رحمة الله حين تولّى كفالته خاله جهلان أحمد بن الحاج سعيد، ولكن ضائقة الدّيْن نَالت منزل أبيه فبيع عليهم، وظل مشكل الدّين قائما رغم ذلك.

وحظي الولد بسنتين من الدراسة في كُتّاب البلدة عند الشيخ إسماعيل بن يحكوب، وفي المدرسة الرسمية بإشراف المعلم الطالب محمد، بين عامي 1910 و1912م.

ولكن شدة الاحتياج ونفاد المورد قطع عليه هذا النور، فلم يكن أمامه من خيار إلا أن يسافر مغتربا إلى مدينة سَرْيَانة سنة 1912م، وهو صبي دون العاشرة من عمره، ليعمل أجيرا لسداد دين أبيه. وفي تلك القرية النائية في جبال الأوراس، ذات الشتاء القارس والثلوج قضى سعيد ثلاث سنين.

كان يجمع في تلك الغربة بين العمل أجيرا في الدكان، وبين الدراسة في المدرسة الفرنسية بها، وتجلّى لمعلميه شغفه بالعلم وحرصه على التحصيل، وكان لامعا بين رفاقه، بيد أن ظروف العمل حالت دون مشاركته في امتحانات الدراسة، فاضطر للانقطاع عنها.

وعاد إلى بلدته القرارة سنة 1915 حين اشتدت الحرب العالمية الأولى، وضاقت المعايش بالناس، وحمله شغفه بالعلم إلى الانضمام إلى حلقة الشيخ محمد قرقر المعروف بـ "الشيخ الطرابلسي"، واجتهد في حفظ القرآن حتى بلغ سورة يس، خاتما بذلك الربع الأخير من كتاب الله.

ولم يلبث بالقرارة إلا قليلا حتى عاد إلى سريانة من جديد في السنة نفسها، ولكنه سافر هذه المرة متفرغا للعمل أجيرا، وأهّلته أخلاقه وإخلاصه وحذاقته أن يكسب ثقة الناس من مستخدمين وزبائن ومعاشرين. وقضى في ذلك العمل خمس سنين.

وظل سعيد الأجير البسيط في المتجر بقرية سريانة شغوفا بالعلم شغفا كان قد ملك عليه أقطار نفسه، ورأى نفسه ثمرةً اختُضِرت قبل تمام نضجها، وازداد لهفه للعودة إلى منابع العلم ليشفي غليله، وظلت نفسه الطماحة طُلَعَةً إلى معينه تهتبل منه فرصا نادرة، ولحظات سانحة. وظل يتحين الفرص بالانكباب على ما يجده في محيطه من قصاصات أوراق فيها بعض الكتابة، فيقرؤها ويسلّي نفسه بها.

وفي سنة 1919 شدّ الرحال إلى مسقط رأسه ليبني عشه، فاستكمل نصف دينه، وشهد ربيع عمره بالاقتران بشريكة حياته. كما عاد إلى مدرسة "الشيخ الطرابلسي" ولبث بها سبعة أشهر أتم فيها حفظ كتاب الله كاملا، لينخرط إثر ذلك في هيئة حفظة القرآن، المعروفة بـ "حلقة إيروان" سنة 1920م.

وفي تلك السنة توفي خاله وولي نعمته أحمد بن سعيد جهلان، وضاقت عليه التزاماته المالية، وقد أصبح رب أسرة، ولم يكن راغبا في العودة إلى الاغتراب، إذ كان يملؤه شعور عميق وإيمان راسخ أنه لم يخلق للتجارة، بل للعلم وخدمة المجتمع.

وأسرع إلى الانضمام إلى مدرسة الشيخ الحاج عمر بن يحي المليكي، وأسرّ إليه بدخيلة أمره، من رغبة جامحة في العلم، وقيود مانعة، من الحاجة وانعدام الزاد. فطمأنه شيخه وأصلح من بعض حاله.

في حلقة هذا الشيخ تعرف سعيد إلى إبراهيم بيوض، الذي بدأ نجمه في السطوع في تلك الحلقة، فتآلفت روح الطالب الجديد وروح الطالب القديم، وتوطدت علاقتهما ليبدأ فصل تاريخي مجيد في القرارة، إذ كانت مؤهلات الشيخ بيوض القيادية قد اختارته زعيما للحركة العلمية بالبلدة، ثم النهضة الإصلاحية الشاملة في الجنوب، وظل سعيد خلال هذه الرحلة التي امتدت ستين سنة كاملة؛ من عام 1921م إلى وفاة الشيخ بيوض سنة 1981م، جنديّ الظل في الجبهة الخلفية، يقيم دعائم البناء المخفية، ويتولى الشيخ بيوض الواجهة المرئية.

واستمرت هذه المسيرة حافلة ومضت إلى غايتها مباركة، حتى أثمرت بركات عمت البلاد والعباد، وتركت أثرها في ميزاب والجزائر، وفي مواطن شتى من العالم الإسلامي.

❖الرسالة المقدسة:

الشيخ عدون وقصة معهد الحياة:

لم يكن معهد الحياة قصة تسلية تروى كسائر الروايات، بل قصة مجد وملحمة جهاد، حمله الشيخ عدون مِشعلاً في حالك الظلمات، ونقَدَ هذا المعهد نفيسَ العمر والأوقات. موقنا أنه أشرف القربات، ومضى بالراية مستميتا رغم التحديات، فما توانى ولا أسلم الراية، حتى أدى الأمانة وحقق الغاية، وأسلم الروح للباري مطمئنا، ووصيته لمن أراد الفلاح: هكذا تكون الحياة، وإلا فخيرٌ منها الممات.

كان معهد الحياة أملَ الشيخ الأوحد، وهمّهُ المقيم المقعد، فهو عصارة عمره، وروح رسالته منذ نشأته إلى يوم وفاته.

ولذلك عرف الناس في وادي ميزاب أن معهد الحياة هو الشيخ عدون، وأن الشيخ عدون هو معهد الحياة. تلازَمَا تلازُمَ الظل والإنسان، وما ذكر أحدهما إلا ورد الآخر على اللسان.

أجل، كانت بداية المشوار من حلقة العلم عند الشيخ الحاج عمر بن يحي، وحين اختار الله هذا الشيخ إلى جواره سنة 1921م، تلقف الشيخ بيوض الراية في مشهد فريد، وموقف تاريخي خالد، إذ جمع التلاميذ بعد الجنازة مباشرة، ليعلن استمرار المدرسة بعد أيام العزاء الثلاث. ولكنه عهد بالمشيخة لأكبر طلبة الشيخ سنًّا، وظل فترة غير يسيرة يعمل جنديا بسيطا في التعليم عمل قائد محنك في الميدان.

ولم يكن يرى أن الظروف مناسبة لاستقلال نشاطه، بيد أن عضده الأيمن الشيخ عدون كان مشجعا رئيسا، ومحفزا متحمسا لفكرة إنشاء مدرسة مستقلة يقودها الشيخ بيوض، إذ اختارته مؤهلاته القيادية لهذا الدور التاريخي الرائد، وبعد تفكير وتشاور واستخارة، أعلن عن تلك المدرسة بصفة رسمية سنة 1925م.

التقطت الصورة غداة الاربعاء 16 جمادى الاول ١٣٩٥ / ٥/ ٢٨ ١٩٧٥
جمع الاستاذ العزيز الشيخ عدون

كان اسم الوليد الجديد "مدرسة الشباب" ثم تحوّل إلى "معهد الحياة". وانطلق مدرسة حديثة تعلم النشء علوم الشريعة واللغة العربية وفق المناهج العصرية.

لقد ولد المعهد بقيادة الشيخ بيوض وإشرافه، وأسندت إدارته الفعلية للشيخ عدون, وظل مديرا له إلى آخر حياته، وقضى عمره مرابطا في ذلك الثغر إدارة وتعليما وتطويرا، يحوطه بما أوتي من حكمة وحزم وبصيرة.

يقول الشيخ عدون: «إن أحسن عمل أتقرب به إلى الله تعالى هو سعيي وأثري في تأسيس المعهد، وأعتقد أنه لو لم أكن حاضرا يوم ذاك لبقيت حالة التعليم على حالها جيلا أو أكثر».

في أحضان هذا المعهد لم يكن الشيخ رأسا في الإدارة يرقب المسيرة على الأوراق، مَحَاضرَ وتقارير تتلى عليه أو تملى، بل كان الأستاذ المربي، والمراقب الموجه، وفوق ذلك المديرَ المسؤول، يرعى كل صغيرة وكبيرة من شؤون الطلبة والمعلمين، ولم يدركه النصب ولا السأم على امتداد السنين.

وظل مشرفا مباشرا على برامج المعهد ومقرراته، ساعيا لتطوير المناهج، وتحديث أنظمة الامتحانات، وتحديد المستويات، ولم يأل جهدا في مده بكل جديد مفيد مما عرفته المدارس والمعاهد الحديثة في ربوع العالم العربي. ولم يفتأ يحث الأساتذة وخريجي المعهد الذين توزعوا في بلدان شتى، على إمداده بكل نافع من هذه البرامج والكتب.

وخصص للطلبة مكتبة زاخرة ضمت كنوز الفكر الإسلامي والعربي والعالمي، وظلت تُرفَد بالجديد عبر السنين، حتى غدت في تنوع محتواها وثراها مكتبة نادرة المثال في الجزائر. وبخاصة أيام الاستعمار وأوائل الاستقلال. ووجد فيها الطلبة ضالتهم فنهلوا وأفادوا، وصدرت عنها العقول بطانا، ونفعت بعلمها أمما وأوطانا.

وتعددت أنشطة المدير في حنايا المعهد خارج دائرة الإدارة والترشيد، إلى ميدان البناء والتشييد، فقد تولى تدريس علوم اللغة والشريعة، وتخصص أساسا في علوم اللسان نحوا وصرفا وأدبا، وظل أستاذا للعربية ما يناهز ستين سنة، حتى أقعدته الثمانون عن مهمة التدريس سنة 1988م. وكلما ذكر النحو في المعهد ذكر الشيخ عدون.

دروس الأخلاق بالمعهد:

وكان لحصة الأخلاق نصيب الأسد في المعهد، ولا يزال يحمل شعاره الخالد: **الدين والخلق قبل الثقافة، ومصلحة الجماعة والوطن قبل مصلحة الفرد.**

وحصة درس الأخلاق لها منزلة خاصة في برامج المعهد، تولاها الإمام الشيخ بيوض في فجر نشأة المعهد، ثم أسندت إلى الشيخ عدون، وظل هذا الدرس آخر ما تمسك به الشيخ حتى حال دونه ثقل السنين، فأسند المهمّة لخلَف أمين.
ولم يكن حرص الشيخ عدون على الاضطلاع بهذه الحصة إلا لإيمانه أن مشكلتنا أخلاقية قبل كل شيء، فما ينقصنا علم ولا عبقرية ولا مال، ولكن أُتينا من فساد الخلال، وانعدام الضمير.
تولى الشيخ مهمة البناء الخلقي في دروس منتظمة للطلبة الجدد، توطئة لهم للانخراط في منظومة المعهد المتميزة، حتى يتخرجوا متميزين وممتازين في نتائج الأخلاق، قبل ما يسطرون من معارف في الأوراق. وقد يهون الرسوب في الامتحان، ولا يباح أن يرسب في السلوك أي إنسان، وإلا فهو الخسار الذي لا يقدر بذهب ولا دينار.
ومن معالم المنهج الذي أقامه الشيخ عدون تجسيد القدوة الحسنة للطالب في شخص المعلم، استقامة والتزاما بتعاليم الإسلام، ليسلك نهجه ويتأسى به، ويكون لكلمته أثرها البالغ وصداها الخالد في النفوس.
وكان الشيخ عدون في هذا المنهج الرائد والحارس، يربي طلبته على الأخلاق والفضيلة، ويشعرهم أنه يكوّنهم لمستقبل الأمة، فهم أساتذتها في الغد القريب، وعليهم أن يكونوا نماذج عليا في تمثّل قيم الإسلام بين الناس، يحاسبهم على التقصير فيما يستهين الناس به من الهفوات، ويغرس في وعيهم أنهم قدوة للناس، فلا يجوز أن يغفلوا عن هذه الحقيقة يوما، ويجسد لهم معنى الحكمة الشهيرة: حسنات الأبرار سيئات المقربين.
في ظل رعاية الشيخ عدون مضى من عمر المعهد أكثر من ثمانين عاما، في مسيرة مباركة، أينعت ثمارا طيبة في تنوير الأمة، وبناء الأجيال، ولا يزال -بحمد الله- حصنا شامخا في سماء العلم والثقافة الأصيلة، يمدّ الجزائر وأمة الإسلام بأجيال من الهداة والدعاة الراشدين المرشدين.

الأنشطة الأدبية بمعهد الحياة:

إن ما ميّز نظام المعهد قيامه على الربط بين الجانبين النظري والعملي في مجال التربية، إذ لا يكتفي بمنح الطالب معارف مجردة في دروس رتيبة، بل يشفعها بحصص تطبيقية في ما عرف باسم "الجمعيات الأدبية" كان الشيخ عدون قد ابتكرها، واتخذها مضمارا لاكتشاف المواهب وتشجيعها، وتفجير طاقات الشباب في ميادين الخطابة والكتابة، والشعر والأدب.
كما كان رئيس هذه الجمعية الأدبية، حرصًا منه على متابعة التكوين الثقافي والاجتماعي للطلبة، وإعدادهم لمهام القيادة والتوجيه في المستقبل عن كفاءة واقتدار، يُعدّهم ويرعاهم في ما ينتجون من خطب ومقالات وأشعار، وتولّى فوق ذلك مسؤولية نشر هذا النتاج، فكان رئيس مجلة "الشباب" التي يصدرها طلبة المعهد أسبوعيا.
لم تكن مجلة "الشباب" مطبوعة بل تصدر مخطوطة، وتقرأ على الطلبة في جلسات أدبية مفعمة بالحيوية والحماس، وكانت لهم بمثابة سوق عكاظ لعرب الجاهلية، تبعث فيه الروح والطموح، وتشحذ الهمم والأقلام، وترسلهم فرسان الميدان، ورواد الأمة في ميادين الإصلاح.

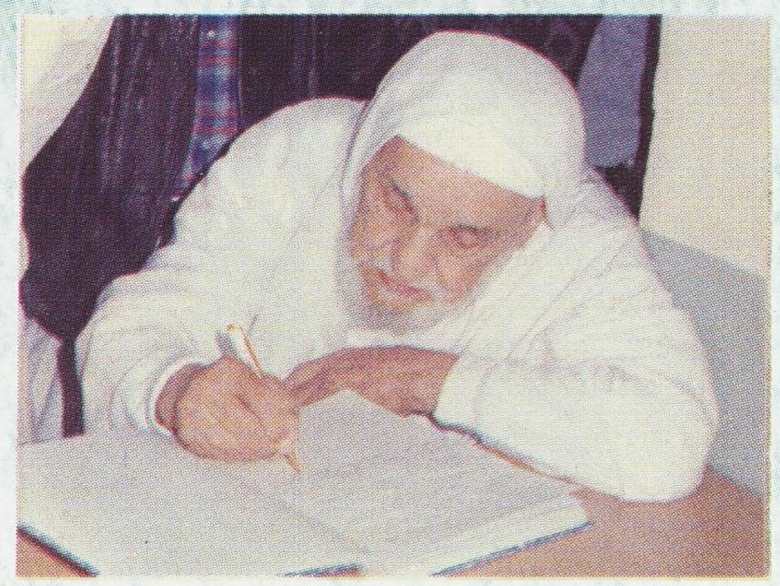

وتطورت مجلة الشباب لترى نور الطباعة المحلية المحدودة، باسم "مجلة الحياة"، ثم دخلت عالم النشر الواسع باسم "دورية الحياة"، تلتقي فيها قرائح أبناء المعهد وأحبائه، وأنصاره ومؤيديه فكرا ومنهجا ورسالة، وغدت الآن مجمعًا لأقلام جادة أغنتها بمواضيع علمية وفكرية واجتماعية قيمة، نالت احترام مفكرين وعلماء مرموقين، وقد استوفت شروطها لتكون مجلة علمية محكّمة يخطب ودّها النابهون والفحول.

أما الجمعيات الأدبية التي أنشئت في عهد الاستعمار، فلم تكن في هدفها البعيد مجرد ميدان للتكوين العلمي التطبيقي، والتدريب على تمثل القواعد النظرية وممارستها في ما يكتب أو يقال، فحسب، بل كانت فوق ذلك ميدانا لترويض العقل على البحث والنظر، والنقاش والحوار، والأهم من هذا كله، أنها كانت مجالاً لعمل أخطر، ومضمارا لتحقيق غاية أسمى، غاية تتمثل في بعث الروح الوطنية ومقارعة الاستعمار، إذ تُعرض في أحضان تلك اللقاءات قضايا الحرية وعزة المسلمين، وفداء الأوطان، والسعي لإنقاذها من براثن الكافرين، وكانت جلسات هذه الجمعية سرية لا علم للإدارة الفرنسية بها، ويتعهد أعضاؤها بكتم أمرها، وعدم إفشائه ولو لأقرب الناس وأعز الأصدقاء.

ومضت تلك الجمعيات في مقدمة القطار، تقود عرباته من محطة نصر لأخرى، حتى كانت شرارة حرب الخلاص، فثار شعب الجزائر بتضافر جهود رجال الإصلاح العاملين في الشمال والجنوب، ووقف الشعب صفا واحدا يقول للمستعمر:

يا فرنسا قد مضى وقت العتابْ وطويناه كما يطوى الكتابْ.
يا فرنسا إن ذا يوم الحسابْ فاستعدي وخذي منا الجوابْ
إن في ثورتنا فصلَ الخطابْ
وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر.
فاشهدوا فاشهدوا فاشهدوا...

وتركت لنا هذه الجمعيات في أرشيفها كنوزا من النتاج الفكري والأدبي يكشف عمّا كان يجري في رحمها من مخاض عسير أفرز هذه الروح الوطنية الواعية، وينم عن مدى الرشاد الذي اتسمت به قيادة الشباب في هذه اللقاءات، حمل رايتها الشيخ عدون وأثمرت في ما دوّنه الطلبة من مقالات وقصائد، وأناشيد بلغت العشرات، كلها تشيد بالوطن وتدعو للسعي إلى تحريره من نير الاستذلال، وجاءت في أسلوب حماسي صادق، ولكنه ذكي حكيم، تدك قنابله معاقل المفسدين، دون أن تنالها أعين المخبرين، أو تسجل عليها إدانة في تقارير العسكريين، وتلك بعض الحكمة التي يؤتي الله صفوةً من عباده المخلَصين.

وهذه الأناشيد صفحة ناصعة من الجهاد، هي بحاجة إلى دراسة مستفيضة تجلّي فضل الجمعيات الأدبية بمعهد الحياة في إيقاظ الروح الوطنية في الشباب، ومحو خرافة أن فرنسا ستبقى في الجزائر إلى يوم الحساب.

كما أثمرت بذرة الأناشيد بمعهد الحياة إنشاء مجموعات صوتية عديدة ملأت فراغا كبيرا في المناسبات، بنتاجها المتميز؛ أدبًا رفيعا وفنًا بديعًا، صوّبت الأذواق، وأنعشت الأرواح، وطوّرت الفنّ الأصيل، وحاربت الهجين الدخيل، وشاركت تلك المجموعة الصوتية في عديد المناسبات، ونالت مراتب الصدارة في شتى المسابقات.

علاقة الشيخ عدون بالشيخ بيوض:

لقد كان الشيخ عدون في هذه المسيرة أساس البنيان، وإن لم يبدُ للعيان، وكان للشيخ بيوض وزيرَ صدق في ميادين الجهاد والكفاح، وكم مرةٍ صرح فيها الشيخ بيوض أنه لولا الشيخ عدون لما حسم أمورا مصيرية عديدة في مسيرة الإصلاح الظافرة.

وظل الشيخ عدون طيلة هذه الفترة الحافلة التي امتدت ستين سنة كاملة؛ عضد الشيخ بيوض الأيمن في جهاده الإصلاحي ومشاريعه العلمية والتربوية. لم يتخل عنه يوما، ولم يتوان عن نصرته ساعةً، حتى لحق الشيخ بيوض بربه قريرا مطمئن البال، فخلفه في ريادة الحركة الإصلاحية، ومضى بالسفينة رُبّانًا لها على امتداد ربع قرن من الزمان.

لقد ظل هذا الوزير خفيًا في الظل، مؤْثِرًا أن يعمل في هدوء وسكون، موقنا أن السفينة لا تحتمل إلا قائدا واحدا يزجيها، وإلا غرقت بمن فيها وما فيها. وكم من زعامات قامت بينها نزاعات بسبب شهوة السلطة وحب الرئاسة، فتآكلوا بداء التحاسد والتكاثر، وقضوا على الأمة في أتون التناحر.

وطبيعة العلاقة بين الشيخين نموذج يحتذى للعاملين في الحقل العام، وفي مجال الدعوة بصورة أخص، نكرانَ ذات، وتفانيًا في سبيل الصالح العام، وإيثارًا لما عند الله من متاع الحياة. ذلك هو الصمام الذي ضمن للحركة استمرارها ونجاحها، وعند فقدانه تتوارد كل الهزائم والنكسات، ويتجرع الناس ويلات التشرذم وتنازع القيادات. وتاريخ الجزائر الحديث طافح بالعشرات من هذه الأمثلة الحية، الإيجابية منها والسلبية.

علاقته بالأساتذة:

علاقة الشيخ عدون بالأساتذة في المعهد نمط فريد تفتقده كثير من أساليب الإدارة الحديثة، إذ كان يرى هؤلاء الأساتذة إخوانه وأعضاده، بل أبناءه وأحفاده، بما كان يفيضه عليهم أيضا من معاني المحبة والتقدير، ويشعرهم أنهم قلب المعهد وقدوة الطلبة، ويشيع في أوساطهم علاقة مودة تسامت عن المطامع والمصالح، وترسخت فجعلت منهم أسرة متلاحمة ضربت مثالا لنجاح الأسرة التعليمية وتعاونها وتضحياتها، وعملها بروح الفريق الواحد، لغاية واحدة هي بناء الأجيال ونشر النور، وإرضاء الله وراحة الضمير، لا مجرد أداء الواجب وانتظار موعد الأجور.

وما رفع إليه أستاذ شكوى إلا أشكاه، ولا قصده في حاجة إلا أغناه، وقد بلغوا جميعا غايتهم منه ونال كلٌّ ما تمناه، وفازوا منه بدعوات الخير، ورضى الأمة وما عند الله خير وأبقى.

وكذلك كانت صلته بالمعلمين في مدارس التعليم الحرة التي أنشأتها جمعيات الإصلاح في مدن ميزاب وخارجه على امتداد القطر الجزائري، يهتم بهم ويتابع أخبارهم ويسأل عن أحوالهم، ويبذل قصارى جهده لتوفير الجو المناسب لهم حتى يقوموا برسالتهم أحسن قيام. ويدعو مَن حولهم من الناس وأهل اليسار لمؤازرتهم ومدّ يد العون لهم، ويهيب بالأولياء أن يعضدوا جهود المدارس، مركّزًا على دورهم الأساس في إنجاح عملية التعليم.

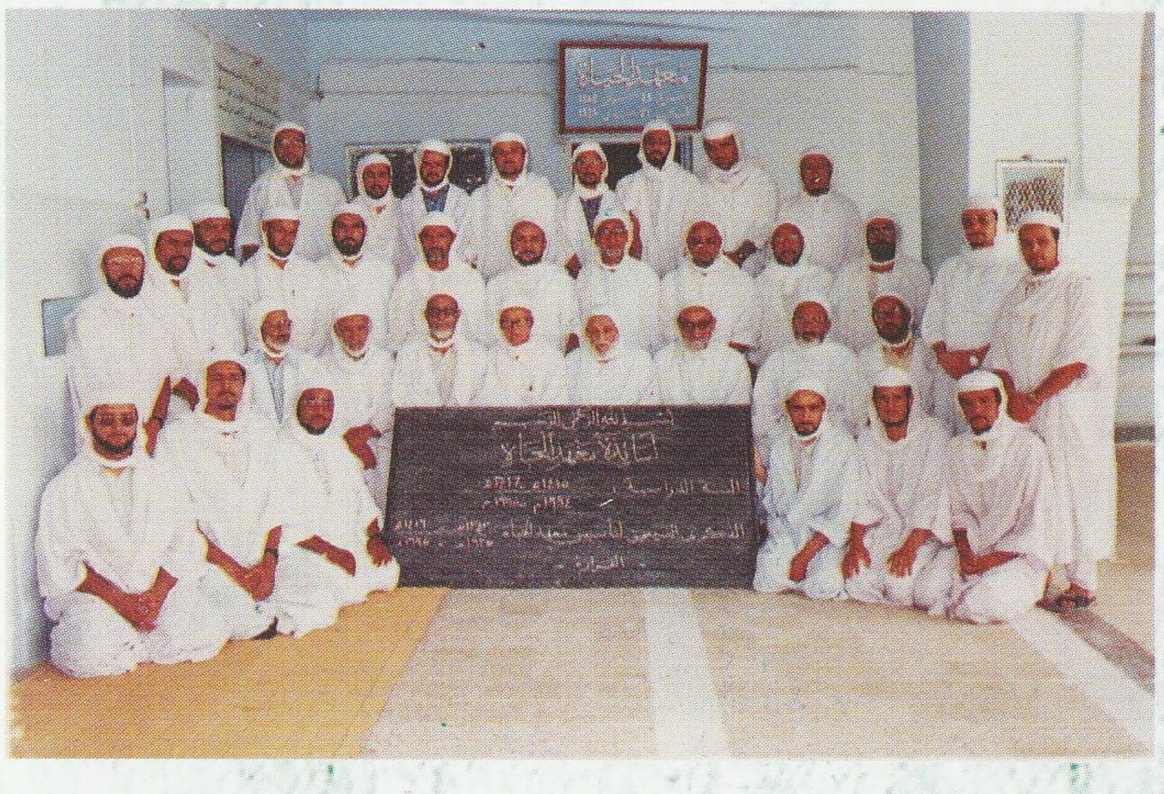

كما يغرس في ضمائر الناس وأذهانهم شرف المعلم وقيمته، وأنه المنقذ الذي يقود الأمة ويتقدم القافلة في طريق الجنة، فعليهم أن يعرفوا مقامه ويقدروه حق قدره.

وكانت استجابة الناس مثالية لهذه التعاليم، حين احتضنوا هذه المدارس بمعلميها وتلاميذها، وناصروها فانتشرت واتسعت وتطورت، ولا تزال نجوما تنير طريق الأجيال في كل مدينة وقرية.

علاقته بتلاميذه:

جمع الشيخ عدون في علاقته بتلاميذه بين الأبوة الحانية، والأستاذية الحقة، بل كان لهم كالأم الرؤوم أيضا، يُعنى بهم ويسأل عن أحوالهم، ويسعى لحل مشكلاتهم، ويمدهم بالعون الأدبي والمادي لتجاوز عقبات التحصيل.

وكان لا يكبر أمامه عائق في طريق العلم، ويبذل المستحيل ليذلله، فيعقد الجلسات العديدة، يقضي فيها الساعات الطوال، لحل تلك المشكلات، وإزاحة المعوقات، ويتفرغ الطلبة للعلم وينبغون فيه، ثم يكونون أقمارا تنير حالك الظلمات، وربانا تسوق السفين إلى بر النجاة.

من هنا كان اهتمام الشيخ البالغ بالطلبة النجباء المجدّين، نظير اهتمامه بالكسلاء المشاغبين على حد سواء، هذا بالتشجيع والتأييد، وذاك بالتقويم والتسديد. وفي هاتين الجبهتين جهاد جليل، وفي بيانهما كلام يطول، لا تكشفه هذه الومضات وتقصر عنه هذه الصفحات.

وكان أكبر هم الشيخ عدون أن يسمع بانقطاع طالب عن طريق العلم، وكان يعدّ ذلك فرارا من الزحف، ويغضب لذلك أشد الغضب، ويردد على مسامع طلبته حُكم الفقهاء أن الفار من الزحف يقتل، تأكيدا منه على خطورة الأمر وفداحة العواقب ليس إلا. ولا غرو فقد ذاق مرارة الانقطاع عن التعليم، ورأى مصير الصغار حين يُختَضَرون من رياض العلم، فيُرمَى بهم إلى شراك الاستذلال والامتهان، فتُرزأ الأمة في قدراتهم ومواهبهم، ويضيع حاضرهم ومستقبلهم، ويخسرون دنياهم وآخرتهم، وذلك هو الخسران المبين.

وكان حريصا على مشاركة أبنائه الطلبة حياتَهم؛ أفراحها وأتراحها، ويحضر أعراسهم ونجاحاتهم، ومناقشات رسائلهم في الجامعات، وإن شط المزار ونأت المسافات. وإذا تعذر عليه ذلك نفحهم برسالة تهنئة أو مكالمة أو رسول، وإذا مضت المناسبة وكان بينه وبين ولده المستبشر لقاء أوفاه نصيبه نصحا وتوجيها، وتحفيزا لمزيد العمل المشرّف، وتسخير علمه لنفع الناس.

وحنوُّ الشيخ على تلاميذه وحبه لهم نفحة مباركة تركت بصمات خالدة في ضمائرهم، وما رأيت أحدا ممن حظي بالتلمذة على يديه إلا أحبه حبًّا جمًّا لما كان يغْذُوهم به من هذا الحب والحنان، حب ينضح صدقا وإخلاصا ورغبة في أن يحقق كل طالب في مستقبله نجاحا كبيرا، ويكون بين الناس شيئا مذكورا.

أما جو الدرس فهو درس لمن رام نموذجا لطريقة التعليم المثلى، توضيحَ حقائقَ علمية، وزرعَ قيم خلقية، وتوطيدَ محبةٍ ومودةٍ وتوقيرٍ واحترام بين المعلم والتلاميذ، وفي تلك العلاقة سر التفوق وحافز على الجد في التحصيل، وفيه تختزل كثير من طرق التدريس العقيمة التي قصَرَتْ نظرها على الوسائل والشكليات، وأغفَلَتِ القدوة، وهي أولى الأولويات، وأساس كل الخطوات.

من ثمار معهد الحياة:

من روح تلك التربية المخلصة السامية، وبتوجيهات الأبوة الشفوقة الحانية، سطع نجم خريجي معهد الحياة حيثما حلوا وارتحلوا، وواصل كثير منهم دراساته في جامعات الوطن، وخارجه، وتوجهوا مشرقا ومغربا؛ فعرفتهم جامعات مصر، وتونس، والشام، والعراق، والسعودية، وفرنسا وإيطاليا وبريطانيا والولايات المتحدة. وبلغوا مطلع الشمس في الصين واليابان، وكانوا في كل تلك الربوع شموسا مضيئة، جدّا واجتهادا، وسلوكا وأخلاقا، شرّفوا المعهد وشرفوا أنفسهم وأوطانهم.

وحين دخلوا معترك الحياة تبوؤوا مقاعد سامية في هيئات حكومية وخاصة، تعليمية وإدارية، ورصعوا صدور الجامعات والمؤسسات المختلفة، ونجحوا في شتى ميادين الحياة التجارية والصناعية والمهنية. وذلك بعض أثر بركة الإخلاص التي نفح بها الشيخ عدون ورفاقه أبناءهم في رحاب معهد الحياة.

ومن نافلة القول أن نشير إلى بعضه نماذج ثمار المعهد اليانعة، وشموسه الساطعة، فمنهم الشيخ علي يحي معمر الليبي، داعية الوحدة الإسلامية، ومنهم المؤرخ الكبير الشيخ محمد علي دبوز، والأديب الشيخ حمو فخار، كهف الحكمة والوقار، والفقهاء الشيخ الناصر المرموري والشيخ محمد ابن الشيخ والمرحوم الشيخ بكير ارشوم، وشاعر الجزائر والعروبة الدكتور صالح الخرفي، وشاعر المعهد الخالد وأنعم به من مرب ووالد؛ صالح باجو، والباحث الإسلامي الشاعر المرهف، الدكتور محمد ناصر، وبلبل الوادي وحكيم أم القرى الشيخ إبراهيم قرادي، وآلاف مؤلفة من الخريجين والنابهين، يقصر عن تعدادهم المقام، ويثقل بأثرهم ميزان الشيخ بين الأعلام.

وبفضل معهد الحياة امتد نور الإصلاح فعم وادي ميزاب ومدن الجزائر، وتفيأت ظلاله بلدان أخرى مثل تونس وليبيا وعمان وتشاد ومالي وزنجبار. وغيرها من الأقطار.

البعثات العلمية إلى القرارة:

حين ذاع صيت معهد الحياة في ربوع الوطن تداعى الناس لإرسال أبنائهم للنهل من معينه، فأقبل طلبة العلم على القرارة يستسقون، وكان رائد النهضة بها الشيخ إبراهيم بيوض على وعي بأهمية نشر الفكرة بواسطة هؤلاء الطلبة، فأَوْلاهم عنايةً منقطعةَ النظير، وآواهم إليه، وخصص لهم دارا يقيمون بها، ثم تتابعت وفودهم وتكاثرت أعدادهم، فكان ميلاد نظام دار البعثات العلمية، وتطور عبر السنين.

وكان للشيخ عدون اهتمام بالغ بهؤلاء الأبناء الوافدين، وإدراكًا منه بما يحسه غريب الأهل من وحشة الغربة والشوق إلى الديار، بذل جهده ليعوض هؤلاء التلاميذ الغرباء ما يأنسون به، بل يجدون أنفسهم بين أهليهم وذويهم. وكان رحمه الله يكلؤهم بعناية خاصة، ويؤثرهم بجلسات متميزة، فملك عليهم قلوبهم وكان لهم رائدا في معترك الحياة، ومثالا ظلوا يشرئبون للسمو إلى مقامه السامق، جدّا وتحصيلا، وتواضعا وإخلاصا، فعمّ فيض هذه القدوة على أوطانهم، وسعدت الأمة بخيرهم، ونسبت للوالد المربي الشيخ عدون، سبب هذا الفضل المبين. وكلهم يلهجون بالثناء عليه قائلين: لولا أيام تلمذتنا بالقرارة ما بنينا لأمتنا هذه الحصون، من جمعيات ومؤسسات، ومدارس ومعاهد للبنين والبنات، فبفضل القرارة كنا شيئا مذكورا، وبفضل الله كان سعينا مشكورا.

ونظام البعثات العلمية بالقرارة، تجربة ثرية في مسار حركة الإصلاح، أثمرت نتائج طيبة وقدمت للأمة عناصر متميزة كفاءةً وعلما وخلقا، واستقى منها الحريصون على بناء الأجيال معالم هادية لإعداد القيادات الكفءة لتولي مهام العمل الاجتماعي والخيري في المجتمع.

وكانت وفود الطلبة تقصد معهد الحياة، من مختلف مدن الجزائر شمالا وجنوبا، ومن خارج الوطن، من تونس، وليبيا، وتشاد، ومالي والنيجر، ومن زنجبار بتنزانيا، وعُمان. وكان التكفل بهم عبئا ثقيلا بكل المعايير، ولكن الشيخ عدون استقبلهم بأبواب مفتحة وصدور منشرحة، وحث المسؤولين على تذليل الصعاب أمامهم احتسابا للثواب عند الله، وأداء لأمانة العلم والدعوة إلى الله، فأقاموا السنوات الطوال، ونهلوا العلم والدين والخلق، ومضوا رسل خير وهدى إلى أهليهم وأوطانهم.

وواصل الشيخ اهتمامه بتطوير المعهد ودار البعثات، على امتداد السنين، حتى دعت الحاجة لبناء جديد يسع أعداد الطلبة الوافدين، من أبناء المسلمين، وانطلق المشروع العملاق ثابت الخطى، وشاءت الأقدار أن يزوره قبل وفاته بيومين، ويسرّ باستمرار المشروع واطراده في البناء، ومضى قرير العين بما رأى، واليوم وقد أتمّ الله المشروع وحقّق المنى، فظننا أنه مستبشر به، يرقب أبناءه وعماره من شرفات عليين، في جنات النعيم.

إنشاء المدارس ووحدة التعليم:

رسالة التعليم عند الشيخ عدون، مبدأ وإيمان، ومنهج حياة. وقد دفعه إيمانه بضرورة التعليم منقذا وحيدا للأجيال، ومحصنا أمينا للدين والأخلاق، أن يسعى لإنشاء المدارس ويدعو إلى توسيعها في كل مناسبة، فكنت تراه أول المبادرين، وأول المشجعين، وأول المباركين، لكل خطوة في هذا المضمار.

وبفضل توجيهاته وتحفيزه، وحرصه ومتابعته تعددت مدارس التعليم القرآني في مختلف مدن وادي ميزاب، وفي أماكن تجمع أبناء الوادي في مدن التل.

لهذا السعي والاهتمام كان أكثر القائمين على تلك المدارس من ثمرات معهد الحياة، ونتاج غرس الشيخ عدون ومشايخ المعهد. انبثوا في مراكز نشاطهم تدفعهم وصية حفظوها عن الشيخ بيوض للواحد منهم عند توديعه "أنِر البقعة التي أنت فيها".

انطلاقا من هذه التوجيهات تنافس الناس في إنشاء المدارس القرآنية العصرية، فنمت وتوزعت عبر أرجاء الوطن منارات هادية تأخذ بأيدي الجيل وتنشئه على هدى القرآن، وتصبغ حياته بصبغة القرآن.

وظل الشيخ عدون يرعى هذه المدارس بالمتابعة، ويمدها بالمعلمين وبالبرامج، ويشجع الناس على تمويلها واحتضانها. ويرى ذلك أفضل الأعمال وأعظم القربات.

في هذه المدارس يستيقظ الصبي -وهو دون البلوغ- مع أذان الفجر، يقصد المدارس لتلاوة القرآن، لا يثنيه برد ولا ظلام، ثم تشرق الشمس فيتجه إلى المدارس الرسمية يقضي بها سحابة يومه، ثم يقفل راجعا مساء إلى مدارس القرآن، يختم فيها يومه بهدي الكتاب وسيرة الرسول، وتاريخ الإسلام، وأنعم به مسكا للختام.

وينتظم في هذه المدارس حاليا آلاف التلاميذ من مختلف المستويات على امتداد الوطن الجزائري. وقد اطمأن الآباء على مستقبل أبنائهم بعد أن كان مهددا بمخططات المسخ الاستعماري، ومعاول الانحلال الخلقي الذي أفرزته الحضارة المادية المعاصرة.

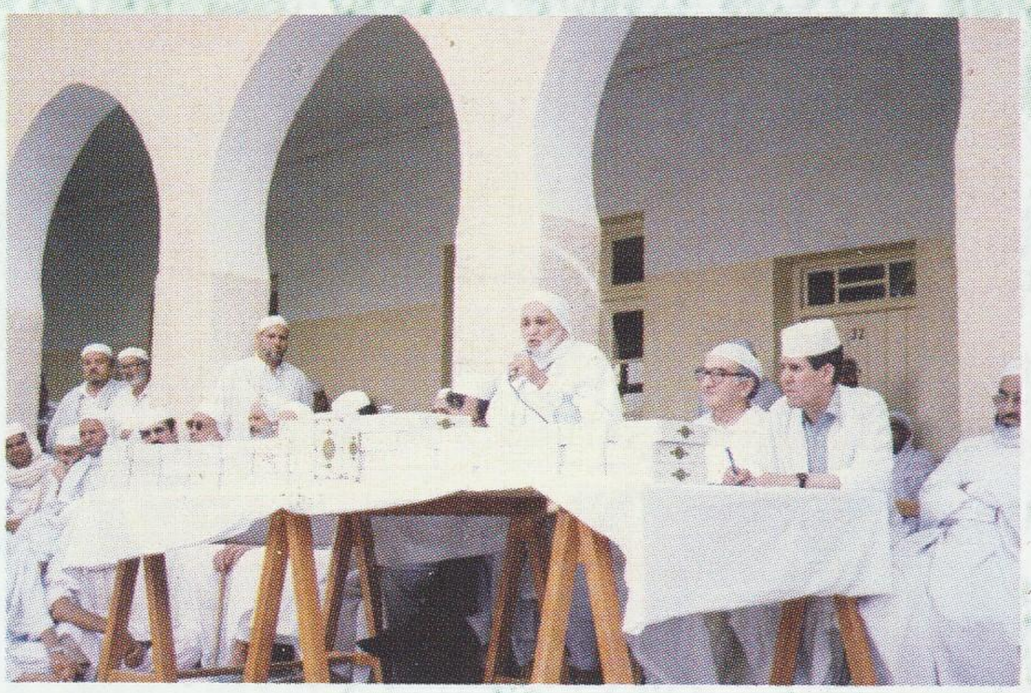

وحين بلغ تعداد هذه المدارس مبلغا طيبا، أنشأ رجال الإصلاح وحدة التعليم للمدارس القرآنية، سنة 1948م، لتنسيق الجهود وتوحيد الخطط والمناهج التربوية لتحقيق أفضل النتائج. ولم يجدوا أكفأ ولا أحرص على تجسيد الوحدة من الشيخ عدون، فاختير رئيس هيئة "وحدة التعليم" وكان مشرفا ومفتشا عاما لهذه المدارس، فازدادت أعباؤه التربوية من جهة، وتعددت أسفاره من جهة ثانية، فكان يعقد جولة سنوية يتفقد فيها هذه المدارس.

وأهّلَته خصال الحزم والجد لحمل هذه الراية أكثر من ثلاثين سنة، فكان يقدم بعد جولة التفتيش العامة تقريرا مفصلا عن نشاط هذه المدارس، ومستوى طلبتها وكفاءة أساتذتها، وهي مهمة غير يسيرة وأيم الحق، تقتضيه أسفارا بعيدة تبلغ آلاف الكيلومترات، في جهات الوطن الأربعة، ولم يتوقف عن هذا العمل الشاق، إلا حين أقعده العمر المبارك وقد جاوز الثمانين.

وفي تقاريره الشاملة حول هذه المدارس صفحة ناصعة لجهاد الأمة وجنود الخفاء في هذا الثغر الهام من ثغور الإسلام.

تمويل المشاريع:

إخلاص الشيخ عدون لرسالة التعليم حمله على تبنّي عبء إمدادها بالهواء والماء، وما ذلك المدد إلا المال الذي يبني المدارس ويجهزها، ويجزي المعلمين ويكافئ التلاميذ، فانطلق يحث الناس على البذل والعطاء في هذا الميدان، وتولّى جمع التبرعات من مختلف مدن الوطن، شرقا وغربا، شمالا وجنوبا، وشرع في هذه الجولات منذ سنة 1938، ولم يتوقف عنها إلى وفاته، ولم تنقطع هذه الجولات إلا مرة واحدة لضرورة قاهرة، حين اشتدت أزمة الحرب العالمية الثانية سنة 1943م.

أجل، لقد ظل مسؤولا عن جولات جمع المال لدعم التعليم في إطار جمعية الحياة، يقطع لأجلها آلاف الكيلومترات، لا يرده عن ذلك إنجاد ولا إغوار، ويتلقى في سبيل ذلك ما لا يعلمه إلا الله من الأخطار، ولم تعقه عن مهمته العوائق، رغم انعدام الأمن وخطورة الأسفار، وبخاصة حين خيّم ليل الفتنة على أرض الجزائر، فواصل مسيره وأسفاره في إصرار فريد، وتحد عجيب، لا يفسرهما إلا تمام التوكل وقوة الإيمان.

ولو سجّل ما كان يلقاه في سبيلها من العنت المادي والمعنوي لحفظ للأجيال كتبا خالدة من الجهاد الأكبر. ولكنه آثر بها الحفظة يرصدونها ليجدها في كتابه يوم الفزع الأكبر.

❖ في الميدان الفسيح:

في رحاب الهيئات العرفية:

أهّلت الشيخَ عدون تضحيتُه وإخلاصه أن يعيّن عريفا لحلقة حفظة القرآن "هيئة إيروان" بالقرارة سنة 1938م، ومهمة العريف مهمة القائد في الهيئة يرعاها ويتولى أنشطتها وسير أنظمتها وأعرافها.

وهيئة "إيروان" تردف هيئة العزابة وتعضدها في مهمتها الدينية والاجتماعية.

وفي سنة 1943م اختير عضوا في حلقة العزابة، وعمل بها بما أوتي من جهد وتفان، حتى آلت إليه رئاسة الحلقة بعد وفاة الشيخ بيوض سنة 1981م، وظل بها ربانا أمينا إلى آخر حياته.

وازدادت مهامه مع تقدم العمر وتكاثر المسؤوليات، فتولى رئاسة "مجلس عمي سعيد" الهيئة العليا لمساجد وادي ميزاب ووارجلان.

ودور المجلس فقهي ديني، يعنى بالقضايا الدينية أساسا، والفتاوى العامة التي تمس المجتمع. وقد سعت فرنسا في إخفات صوته وتقزيمه، ثم أحيى نشاطَه الإمام الشيخ بيوض إثر استقلال الجزائر، سنة 1962م، وترأّسه إلى حين وفاته، ثم تلاه في رئاسة المجلس شيوخ أجلاء، كان آخرهم الشيخ عدون استمر على رأسه منذ وفاة شيخه السابق، الشيخ الحاج محمد بابانو سنة 1989م.

ولهذا المجلس جلسات أسبوعية لتداول مستجدات الحياة الدينية وما يحتاج إلى بتّ وفصل من قضايا الفقه والفتوى في ميزاب.

كما يُعنى المجلس برعاية أوقاف الميزابيين في ربوع الجزائر وخارجها، وبخاصة في البقاع المقدسة، ومتابعة ما يهمّ هذه الأوقاف من تنظيم وترسيم وتسيير.

ولكل هذه الهيئات التي ينتمي إليها الشيخ عدون جلسات عمل أسبوعية تعقد في القرارة أو غيرها من مدن وادي ميزاب، تجد الشيخ عدون فيها دائما هو الأول في الحضور، والأخير في الانصراف. في التزام وانضباط وصبر، لا ينقضي منها العجب والإعجاب.

ومن الهيئات العرفية التي كان لها دور هام في رعاية شؤون المجتمع مجلس يعرف باسم "مجلس باعبد الرحمن الكرثي" يعنى بقضايا العمران والاجتماع، واتخاذ المواقف المناسبة المتعلقة بمصير المجتمع، ومواجهة الأخطار ومستجدات الحياة. كما أن له اهتماما بقضايا السياسة التي أفرزها تطور المجتمع الحديث.

وقد ركن هذا المجلس العرفي إلى الظل أمدا طويلا، فدعا الغيورون إلى إحياء نشاطه، وكان للشيخ عدون يد طولى في ذلك، فعاد لمواصلة جهوده، وأسهم مجلس الكرثي في مسار وتوجيه أحداث كثيرة عرفتها المنطقة في السنوات الأخيرة.

في العمل الاجتماعي:

في جبهات الشيخ عدون العديدة تتوارد إلى الأذهان جمعية عتيدة كانت محور الأحداث في القرارة وميزاب منذ نشأتها سنة 1937م، إنها **"جمعية الحياة"** التي أسسها الشيخ بيوض، لتكون مظلة لحركة التعليم، بما تقتضيه تنظيمات القوانين آنذاك، وكان صدور رخصة الجمعية في ظرف عصيب بعد مساع مضنية، بسبب تعسف السلطات الاستعمارية، ثم غدت الجمعية موئلا لأنصار العلم والإصلاح، تتولى الجانب المادي والتنظيمي للحركة العلمية في مدارس التعليم الحرة بالقرارة، على اختلاف مستوياتها الابتدائية والإعدادية والثانوية، وما بعدها. وتشرف على البناء والتجهيز والتسيير والتنظيم. وكان قلب الجمعية الشيخ عدون، بمساهمته الفعالة في تأسيسها، وعضوية إدارتها، وتولّي أمانة كتابتها منذ نشأتها، ثم ماليتها، حتى اختير رئيسا لها بعد وفاة الشيخ بيوض سنة 1981م.

وكان الشيخ بيوض يقول كلما جرى تجديد انتخابات إدارة الجمعية: "غيّروا من شئتم إلا الشيخ عدون".

ولم يتخل عن موقعه فيها إلى آخر حياته، رغم ثقل السنين، واشتداد وطأة المرض، ولم يكن يعجبه قول الشاعر:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولا لا أبا لك يسأم.

بل كان يقول: أما أنا فلم أسأم بعد تكاليف الحياة.

ولا عجب، فتلك ثمرة الإيمان، وبركة الإخلاص. وأنى أن يسأم الحياة من ظل عمره يتمثل قولة المصطفى عليه السلام: «طوبى لمن طال عمره وحسن عمله»؟.

ويمتد نطاق العمل إلى جبهات اجتماعية متنوعة، فنجد الشيخ عدون يشارك في تأسيس **"نادي الحياة"** سنة 1938م، ليكون ميدانا لفرسان الخطابة والشعر والتمثيل. يرتاده المثقفون وأنصار العلم، وهواة الأدب والفكر، فكان بمثابة المراكز الثقافية التي تتباهى البلدان بإنشائها استقطابا للشباب والطاقات، وكشفا للمواهب والكفاءات، وتشجيعا للإبداع والاختراع.

ثم يشارك الشيخ عدون في سنة 1946 في تأسيس فرع **الكشافة الإسلامية في القرارة**. ليصبح الفرع دوحة وارفة الظلال، إذ نمت الكشافة وتفرعت في مدن ميزاب، وتطورت بما أحدثت من للالكشافة أنشطة وأعدادا، فساهمت في إنشاء جيل من القادة ورجال الأمة العاملين، وبنت قاعدة شبانية استندت إليها الحركة الإصلاحية في تطوير المجتمع والوطن، كما كان للكشافة مساهمة طيبة في معركة التحرير إبان الاستعمار، وفي معركة التشييد بعد الاستقلال.

ثم تأتي سنة 1948، لتؤذن بالميلاد الرسمي لـ **"جمعية قدماء التلاميذ"** التي تضم كل الطلبة الذين درسوا في معهد الشيخ بيوض، وتتولى الاهتمام بالشؤون العامة الاجتماعية منها والثقافية. فكان الشيخ عدون عضوا مؤسسا لها، وكان للشيخ بيوض خطبة ارتجالية تاريخية رسمت معالم الجمعية وأهدافها، وسجلها الشيخ سعيد بن عبد الله الشيخ دحمان، ونشرتها كتب التاريخ التي أرّخت لهذه الفترة الذهبية من حركة الإصلاح.

وفي جلسة التأسيس تلك تقدم الشيخ عدون مبايعًا الإمام بالسير على نهجه والوفاء لمسيرته، وأشهدَ الحضور على هذه البيعة، وكان موقفا تاريخيا جسد قيم الشيخ عدون في الوفاء والتضحية والإخلاص.

وانطلقت جمعية القدماء تحتضن خريجي المعهد من مختلف مدن وادي ميزاب، وظلت رابطة للتواصل بينهم وتنسيق نشاطهم العلمي والاجتماعي، وأبرزت ثمارا طيبة في سنيها الأولى، ولكن يدا ماكرة تسترت برداء السياسة، وسعت لوأدها حين رأت خطرها على مصالح بعض المتنفذين، فتقلص نشاطها، واقتصرت على مدينة القرارة، وظلت مشرفة على النشاط الثقافي والاجتماعي في المدينة، برعاية الشيخ عدون، ولا تزال تقوم بدورها إلى اليوم.

وفي سنة 1989 أنشئت بوادي ميزاب جمعية علمية حملت اسم "جمعية التراث" هدفها العناية بالتراث الفكري للمنطقة حفظا ودراسة وتحقيقا ونشرا، وتشجيعا للبحوث العلمية الجادة في مجال الفكر الإسلامي بعامة، والإباضي بخاصة. وكان على رأس الجمعية الشيخ عدون يؤازه ثلة من أبنائه الشيوخ والكهول والشباب الطامحين، وقطع الوليد الجديد خطوات مباركة في هذا المضمار، وأنتج للأمة نتاجا طيبا من البحوث والدراسات، ونشر العديد من كنوز الكتب من فهارس المخطوطات، ورسائل جامعية، وموسوعات ومعاجم علمية، فتعرّفت الأجيال إلى تراثها وتاريخها، وعرفت أصولها وهويتها.

ولا تزال جهود العاملين متواصلة في سبيل هذه الغاية النبيلة، في قيادة تحدوها رؤية مستنيرة، ترسم الخطى بروية وبصيرة، مؤمنة بأن هذا مشروع حضاري واعد، سوف يحقق تقاربا محمودا بين المسلمين، وإزالة لغشاوة الشك وسوء الظنون، وما فعلته كتب المقالات في صفوف المسلمين، وتلك خطوة لازمة للتوحيد بين أبناء عقيدة التوحيد.

في ريادة أنشطة الشباب:

كانت للشيخ عدون اليد الطولى في تشجيع الأنشطة الشبانية في الجمعيات الأدبية، والرياضية، والكشفية، والنوادي العلمية والثقافية، والمجموعات الصوتية ذات الفن الأصيل، يسندها ويشجعها، ويصوب مسارها، ويقوم اعوجاجها، لا ينفك مهتما بها غاية الاهتمام، وكأنها همه الأوحد، ومشكلته الأساسية، وهي في الواقع رقم في عدد كبير، وعنصر ضمن قائمة طويلة من ملفات المجتمع وقضايا الأمة، ولكنه الإخلاص والصدق، يمنحان الفرد الوحيد قوة جيش عتيد.

وتميز بفكره الذي ظل شبابا، لم تؤثر في مضائه واتقاده السنون، ولم يدركه المشيب، فكان إلى آخر عمره مشجعا لأنشطة الشباب داعيا للتطوير، وابتغاء الجديد من كل نافع مفيد، منكرا الجمود على القديم وتقديسه لمجرد أنه قديم. وشرطه الوحيد في مضمار التطوير التمسك بالثوابت من قضايا العقيدة وقيم الأمة، ثم البحث عن الأجدى والأفضل في كل ما أنتجت قرائح البشر في مشارق الأرض ومغاربها، لأنه من الحكمة التي أمرنا بالبحث عنها والأخذ بها رسولنا الكريم.

وعُرِف الشيخ عدون لدى الجميع بأنه شيخ الشباب، ورائد التجديد، وأنه سباق بفكره لكثير ممن يصغرونه سنًّا بعدة عقود.

ومن نظراته السديدة ونصائحه التي يزود بها الشباب؛ ضرورة ثقة الفرد بالله أولا، وإخلاص القصد له دائما، واعتداد المرء بنفسه دون غرور، والتزود بالصبر لبلوغ الغايات وتحقيق النجاح، ودون ذلك ستذهب جهوده أدراج الرياح، ولن يكون له دور فعال في التغيير والإصلاح.

في خدمة الوطن والإسلام:

الحس الوطني عند الشيخ عدون شعور فطري أصيل، والعمل للوطن لا ينفك عن العمل للإسلام، لأنهما وجهان لعملة واحدة، وقد سعى حياته في تنشئة الأجيال على حب الوطن، وأسسّ الجمعيات الأدبية لغرس الوطنية في الشباب، وكان حاضنا لأنشطة الفدائيين أيام الثورة التحريرية في القرارة، ومقرهم الأول كان بدار عشيرته "آل كاسي والناصر"، وكان الشيخ عدون رئيسها.

وعندما بزغ فجر الاستقلال آلمه أن ينحرف مسار الحركة الوطنية عن هدفه المرسوم وهو خدمة الإسلام ونصرة لغة القرآن، فاستنكر ذلك ونبّه إلى مخاطره، ولكنه ظل يدعو إلى تصحيح المسيرة، ويبصّر الناس بعامة، وطلبته بخاصة إلى وجوب العودة إلى المنابع الأصيلة، ومحاربة الأفكار والتيارات الدخيلة. وينعى على أهلها نقضهم للعهود وإخلافهم عهد الجدود.

ولئن أنكر على من حرّف المسيرة وتنكّر للمبادئ من أهل السلطة، فقد ظل مشجعا على تولي المناصب القيادية في الإدارة والحزب، ومختلف مواقع القرار لتعديل المسار، وتقديم النموذج القدوة للجزائري المسلم الناصح، الغيور على دينه ووطنه. وكان يحث طلبته وينفحهم بهذه الوصايا كل حين.

وكانت نظرته لكل القضايا واسعة في حدود دائرة الإسلام، مهتمًا بقضايا المسلمين، يفرح لما يسرهم، ويحزنه ما يسوؤهم، وما فتئ يلهج بالدعاء بالنصر لإخوانه في فلسطين وغيرهم من المستضعفين في أقطار الأرض، ويبث روح الوحدة والغيرة على حرمات الإسلام في أبنائه، وينتهز لذلك كل مناسبة خاصة أو عامة، إدراكا منه لضرورة وحدة المسلمين، ووجوب القضاء على كل أسباب الفرقة والشقاق بين أبناء أمة الإسلام.

وظل يلحّ على حرمة اتخاذ الاختلاف المذهبي سببا لشق الصف وإيقاد نار الفتنة، فما المذاهب إلا مدارس اجتهادية تنهل من معين الكتاب وسنة المصطفى عليه السلام.

وشغلت قضية فسلطين صدارة هموم المسلمين في فكره، وكان يقول إن حلّها لن يكون عربيا ولا شرقيا ولا غربيا، ويردد دائما أن تحرير فلسطين لن يتمّ إلا على يد من يحمل راية التوحيد، ويعمل لدين الله أن يسود، وما سوى ذلك محاولات بائسة فاشلة.

وكانت له جهود حميدة لإطفاء نار الفتنة التي اندلع لهيبها بأرض الجزائر في تسعينيات القرن الماضي، تلك الفتنة التي أسالت من الدماء أنهارا، ونشرت في عرض البلاد موتا ودمارا.

وأعلنها الشيخ صريحة مدوية أن هذا حصاد الهشيم للتكالب على المناصب، ودعا المتنازعين أن يعوا بأن الكرسي لا يحتمل إلا شخصا واحدا لا أكثر، وأن حمى الكراسي أول أسباب البلاء لو أنهم كانوا يعقلون.

❖قضايا ومواقف:

دفاعا عن لغة القرآن:

عرف الشيخ عدون بأنه مدافع مستميت عن لغة القرآن، قضى العمر يحببها إلى النفوس، ويغذي بها العقول، ويقيم الألسنة على قواعدها، نحوًا وصرفا، وأدبا وبلاغة، وتاريخا وفكرا، مؤمنا أن العربية وعاء القرآن، وإذا ضاع الوعاء ضاع ما فيه، ويرى الحفاظ عليها واجبا دينيا قبل أي اعتبار.

لقد رأى ببصره وبصيرته مخططات الاستعمار للقضاء على العربية في الجزائر، تجفيفا لمنابعها، وزحزحة لها عن مواقعها، حتى تغدو لغة ثانوية لا أصيلة، فيستبدل بها اللغة الدخيلة. رأى الشيخ كل ذلك، وأدرك خطره على الدين، فمضى يصدّ هجمات التغريب، وامتد جهاده أثناء الاستعمار وبعد الاستقلال، حين نجم قرن دعاة التغريب من جديد.

ونصرة العربية ميدان الشيخ الأكبر، إذ قضى في تدريس لسانها بمعهد الحياة ما يربو على خمسين عاما، وآتت جهوده ثمارها في ترسيخ العربية في القلوب وأنشأ على لغة القرآن أجيالا من الأدباء والشعراء، وأرباب القلم والبيان، وغدت ميزاب قلعة العربية في أحلك ليالي الاستعمار، ولا تزال بحمد الله نموذجا رائدا في نصرة الضاد، رغم تكالب أعدائها لمواصلة المشروع الاستعماري لفرنجة لسان الشعب الجزائري.

واشتهر الشيخ عدون في الأوساط العامة والخاصة أنه مدافع عنيد عن اللغة العربية، لا يرضى في شأنها مساومة ولا موازنة، ولو مع اللغة الأمازيغية لغة الآباء والأجداد، ويرى أن هذه لغة المصالح الآنية، تشكل جزءًا من الهوية، ولكنها في مأمن وعافية، أما العربية فلغة الدين، ولغة القرآن، ومفتاح سعادة الإنسان، وعليها يقع الرهان، إن أفلت منا لسان جدودنا فقدنا بعض الشيء، وإن أضعنا لسان القرآن أضعنا كل شيء.

وفي ما خلد من مقالات عديدة في مجلة الشباب، وفي جرائد أبي اليقظان، شاهد صدق على تلك الروح التي كانت توجه قلمه، وذلك الشعور الذي ملك عليه أقطار نفسه، فمضى يمجد لغة القرآن ويذود عن حياضها، ويحببها للناس، مفتاحا لمعاني القرآن، وسبيلا لخدمة الإسلام.

الشيخ عدون والكتاب:

ذاق الشيخ عدون فقد العلم ومرارة الحرمان أول عمره، فانتصر للقراءة إلى حد الإدمان طول عمره، وأكب عليها بلهف منقطع النظير، وظل الكتاب أنيسه وسميره، لا يعوقه عنه سهر ولا سفر، ولا ينفك عن المطالعة مهما بلغ به الإعياء، وكان يختم ليله بقراءة تستمر على الأقل ساعة من الزمن، إن سبقها سهر، وإذا خلت ليلته من جلسة عمل -وقليلا ما تخلو- كان نصيب القراءة فيها موفورا، فاستمرت لعدة ساعات.

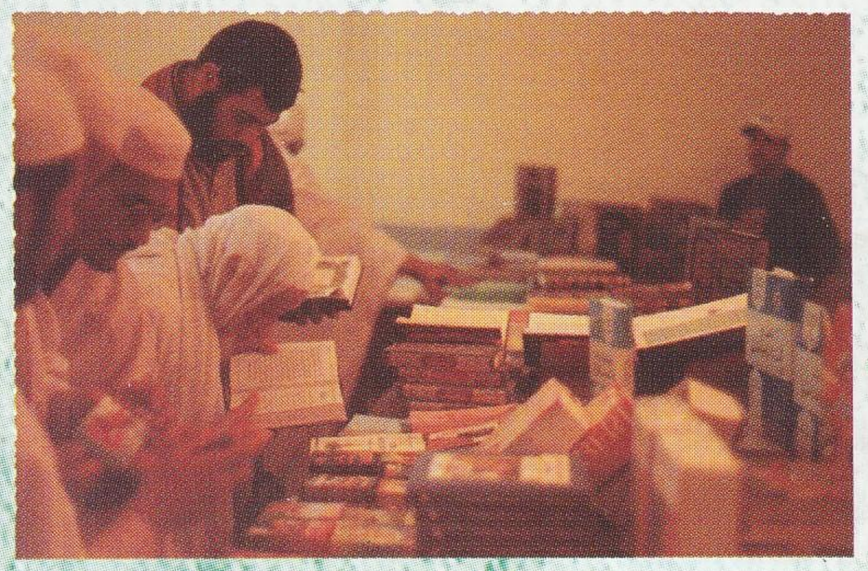

وكان حريصا على الكتابة والتأليف حرّض عليهما تلاميذه، فأبدعوا فيما كتبوا، وله مراسلات أدبية معهم في هذه المجالات. كما دوّن صفحات ناصعة من تاريخ الحركة الإصلاحية ومن دروس الشيخ بيوض في التفسير، لعل الله يقيض من ينشرها لتنصف الرجال العاملين، وتكشف حقائق ثمينة عن هذه الحقبة الذهبية من تاريخنا المعاصر.

وكان يتابع ما تصدره دور النشر من كتب وبحوث ودراسات، وما ينفحه به أبناؤه وأحباؤه من إنتاجهم، ولم يعجزه كثرة ما يرده عن استيعابه، فكان إذا بلغه كتاب وجدته قد أكمل قراءته بعد يومين أو ثلاث أو بضعة أيام حسب حجم الكتاب.

وما فتئ متابعا حريصا للصحف والدوريات تأتيه من داخل الوطن وخارجه، يتابعها متابعة يومية قد يعجز عنها المتخصصون أو المتفرغون.

يقرأ كل ذلك الإنتاج وينقده نقدا موضوعيا ببيان ما له وما عليه، في الفكر والمنهج، والتحليل والأسلوب.

وقد حدث أن كان لجمعية التراث -وهو رئيسها- مشروع "معجم أعلام الإباضية"، وبعد إتمام مسودة المشروع وزّع على عدد غير يسير من المشايخ والمراجعين لتقديم ملاحظاتهم حوله، فلم يَرِدْ حينها إلى لجنة المعجم إلا ملاحظاته مفصلة دقيقة، ونال قصب السبق أن كان أول من كتب ملاحظاته على المعجم، وصادف أن زرته مرة وشكرت حرصه ودقة ملاحظاته، واستغربت سكوت الآخرين عن الجواب، وعلقت قائلا: أرى يا شيخنا أن أعجز الناس عن الكتابة عندنا هم المثقفون. فأجابني على الفور: وأنا إمام العاجزين.

وتعجب لقدرته وجلده، وطول نفسه في القراءة رغم كبره، فلم تضعف السنون من بصره، حتى فتحها على رياض قبره، رحمه الله.

ولا غرو بعد هذا أن يكون الكتاب مركز اهتمام الشيخ؛ إذ أدرك قيمة العلم ناشئا وعاش حياته معلما. وقضى في أحضان الكتاب زهرة عمُره، ولم تحرمه نعمةَ القراءة العوائقُ في كبره.

ولم يكن قاصرا على الإفادة من الكتاب مادة جاهزة للاستهلاك يخص بها نفسه، ويروي بها نهمه وفضوله العلمي. بل اتسع اهتمامه فجعل من صناعة الكتاب قضية أمة، وسعى لتوفيره للناس بمختلف الوسائل، فكان من أكبر مشجعي طباعة الكتب، وله تاريخ مشرف مع المطبعة العربية التي أنشأها الشيخ أبو اليقظان في الجزائر، وما كان لها من دور في طباعة صحافة أبي اليقظان، ونشر كثير من الكتب العربية في أحلك ليالي الاستعمار، ثم استمر يرعى المطبعة بعناية أكبر عند انتقالها إلى غرداية، وظل حنوّه عليها وحرصه على نجاحها من صميم اهتماماته إلى آخر عمره.

ومكتبة معهد الحياة تشهد على جهوده الطيبة في سبيل إثرائها ومدّها بالجديد، وتحيّن الفرص والمعارض لجلب كنوزها وتوفيرها للطلبة والباحثين.

وكان يدعو طلبته خلال التدريس لاقتناء الكتب، لأنها معينهم الذي لا ينضب. ومما حفظناه عنه قوله: روينا عن مشايخنا أن اقتناء الكتب يورث الغنى.

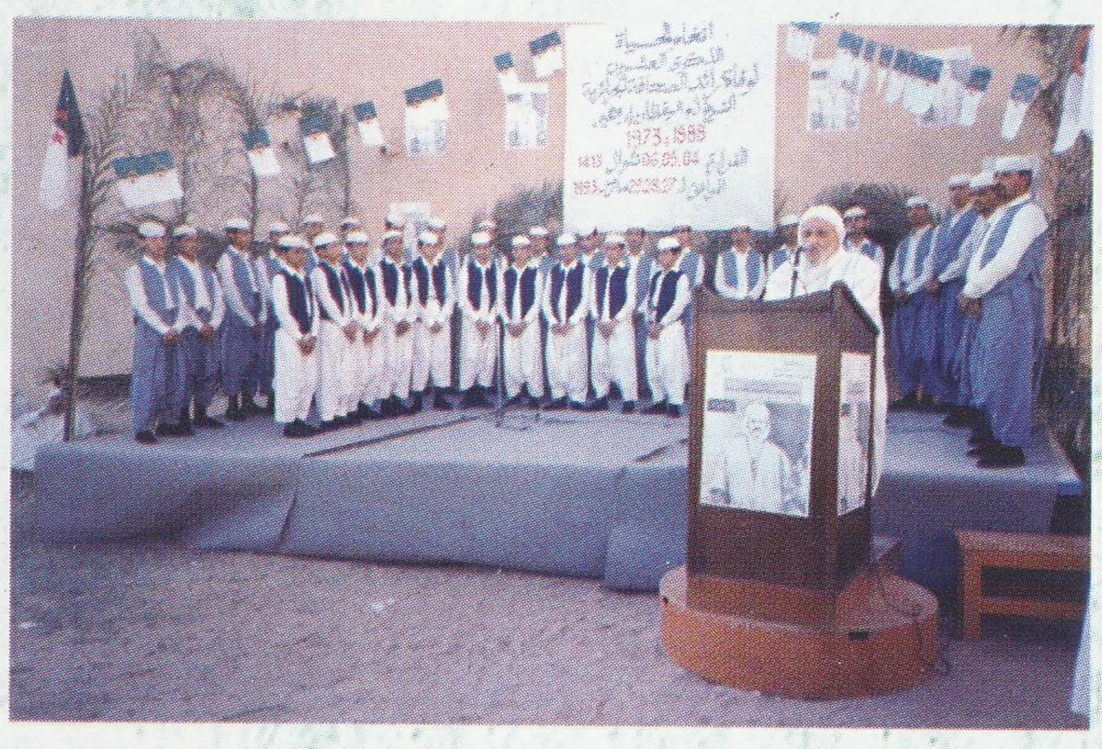

ولم يكن يكتفي بالدعاية المجانية، بل ظل يدعم هذا الكلام بالفعل، فيمنحنا فرصة الشراء من مكتبة الحياة بالتقسيط وبالأجل، ولا يمل من مماطلة البعض وتعللهم بواهي الحيل.

كما اهتم بتشجيع المؤلفين، ونشر مؤلفاتهم، وكانت دعايته لتوزيع الكتاب نموذجا للمؤمن بقدسية الكتاب، وقيمة الفكر في صناعة الحضارة. وغدت كلماته الترويجية للكتب قدوة في الأوساط الثقافية، والمنديات الأدبية.

في رحاب الصحافة:

آزر الشيخ عدون رائد الصحافة العربية في الجزائر وعميدها الفقيد الشيخ إبراهيم أبا اليقظان في جهاده الصحفي في مقارعة المستعمر، وبذل جهده لنصرته بالتشجيع والاكتتاب والكتابة والتحرير، في متابعة أخبار وادي ميزاب ومجريات حركة الإصلاح، وغيرها من الموضوعات التربوية والفكرية والإصلاحية.

وكان أول مقال له في جريدة "وادي ميزاب" سنة 1926، بعنوان "جولة في وادي ميزاب".

ثم انتدبه الشيخ أبو اليقظان ليتولى تحرير افتتاحية جريدته "وادي ميزاب" سنة 1936م، وظل سنة كاملة بالجزائر العاصمة يشرف على إصدارها وتحريرها. ثم رجع إلى القرارة لمواصلة مسيرته في أحضان معهد الحياة.

وكان الشيخ عدون يوقع مقالاته في تلك الجرائد باسم "سعيد"، وتبلغ تلك المقالات ما يقرب من مائة وخمسين مقالا، تشهد على ضلوعه في الأدب، وتملكه ناصية البيان.

وفي صحافة أبي اليقظان تاريخا وكفاحا ومقالات شواهدُ عن سفر ذهبي من جهاد "سعيد" في مقارعة الاستعمار العسكري والجمود الفكري.

المرأة في عين الشيخ عدون:

أولى الشيخ عدون المرأةَ وتعليمَها عنايةً بالغة يقينًا منه بدورها الأساس في تنشئة الأجيال عن علم وبصيرة، وسعى لفتح أبواب المدارس أمامها، مخالفا الرأي السائد بمنعها هذا الحق لاعتبارات ومعاذير، لا تغدو أن تكون تخوفا ومبالغة، لا تصمد أمام الحجة البالغة.

وقد ظلت قضية تعليم المرأة مثار جدل بين سدنة القديم وأنصار التجديد في العالم العربي، وأسالت من حبر الكاتبين أنهارا، وتوزع الفريقين سبيلان، اشتطّا بين متزمت متحجر وبين مندفع متحرر، فمنهم من رآها نسخة طبق الأصل للرجل إلا فوارق لا تغير من جوهر التطابق بينهما، مرددا دعوات غربية، أملتها أفكار شيطانية، فأطلق للمرأة العنان في كل ميدان، وغدت كلأ مستباحا للغاوين والهاوين، ونهبا مباحا للذئاب العاوين.

وفريق آخر رآها فتنة مكنونة، واتخذها أمَة أمينة، أو متاعا للزينة، وحظر تعليمها خوفا عليها ومنها، وإلا أفلتت من الزمام، وشقيت بها الأنام. فتركها فريسة للجهل وصيدا للشيطان، وكلا طرفي قصد الأمور ذميم.

وضاعت بين النقيضين أجيال، واصطرعت لأجلها الرجال، وقال الشيخ عدون فصل المقال، فرفض تجهيل المرأة خوفا من انحرافها، وتبنى تطبيق أمر الرسول لأمته "طلب العلم فريضة على كل مسلم"، وأخذ بتفسير الراسخين من العلماء، أن خطاب التكليف يستوي فيه الرجال والنساء، وأمْرُ الله بالقراءة في قوله "اقرأ"، ليس خاصا برسوله، بل يعم أمته جمعاء.

ورغم معارضة فريق عريض من الناس لفكرة الشيخ عدون، ومنهم بعض رجال الإصلاح، إلا أنه أصرّ على رأيه، واقتنع أنه صواب ورشاد، وبدأ التطبيق منفردا بإدراج بنته في المدرسة، ولم يأبه بقوة المعارضة، ثم استبان للناس رشد ما فعل، فاقتدوا به وعمرت المدارس بالبنين والبنات، وحمد الناس غب سراهم بعد قرون الجهل الحالكات.

وفي وادي ميزاب اليوم مدارس عصرية نموذجية لتعليم البنت بأفضل المناهج، في محيط نقي كله طهر وعفاف، فيه تتلقّى البنت كل ما ينفعها من علوم الشريعة وعلوم العربية، وما يعضدها من علوم العصر، فضلا عما يؤهلها للقيام بمهمة تربية الجيل، من علم النفس والتربية، ومهارات الحياة التي تجعلها ربة بيت ذات خبرة ويد صناع، تصير بها الدنيا خير متاع.

وانتهجت هذه المدارس أسلوبا تربويا ناجعا وناجحا مقارنة بما عرف الناس من مناهج التعليم الحديث، لجمعها بين مستلزمات الأصالة ومقتضيات المعاصرة، وتوفيقها بين فطرة المرأة وطموحاتها الطائرة.

❖ خصال وبصمات:

مدرسة الأسفار:

الشيخ عدون رحالة من الطراز الأول، لو كان قلمه سيالا في حفظ محطاته، لبز ابن بطوطته في رحلاته، ولم يكن يؤوده إنجاد ولا إغوار، يقطع آلاف الكيلومترات في زمن قياسي، ويظل دؤوبا على العمل، تدريسا وإدارة لمهام المعهد، ورعاية لمصالح الأمة، والتزاما بنصيبه من المطالعة اليومية لا يني ولا يفتر. ولا يستدعي راحة لأجل السفر.

ومن أطول رحلاته، رحلته البرية من الجزائر إلى المشرق، مرورا بتونس وليبيا ومصر إلى الأردن وسوريا ولبنان، سنة 1965 رفقة الشيخ ناصر بن محمد المرموري، والشيخ محمد بن بابا الشيخ بالحاج (ابن الشيخ)، والوالد صالح بن إبراهيم باجو، بسيارة الكريم المنعم السيد عمر بن بكير الحاج مسعود.

كما سافر إلى البقاع المقدسة عبر أوروبا رفقة أهله وولده الأصغر بقيادة صهره السيد خياط محمد بن الحاج صالح سنة 1987م، وقد تجاوز حينها الخامسة والثمانين، ولم يشْكُ تعبا ولا وصبا ذهابا وإيابا، بينما لقي بعض رفقاء رحلته من العناء ما حمله على العودة جوّا إلى الجزائر.

وله رحلات عديدة إلى فرنسا بالسيارة، ومساحة فرنسا خمس مساحة الجزائر، فلا تذكر أسفارها مقارنة بجولات الشيخ في ربوع الوطن الرحيب.

وكان له من الأسفار مدرسة أفادته في رسالته المقدسة، بما نال منها من اطلاع على أحوال المسلمين واتصال بعلماء الإسلام، وقد زار معظم الدول العربية وعددا من البلدان الأوروبية، في رحلات عديدة، وكانت له لقاءات مثمرة بعلماء المسلمين داخل الجزائر وخارجها، نذكر منهم الشيخ أحمد سحنون أحد رجالات جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وسماحة الشيخ أحمد الخليلي المفتي العام لسلطنة عمان.

في أحضان الأسرة:

لا ينجح إنسان نجاحا مستمرا إلا وله من محيطه الأسري مدد وسناد، وقد حظي الشيخ عدون بأسرة منحها الحب والوداد، فبادلته الهناء والإسعاد، فكان نعم الزوج والوالد، ولأقربائه العضد والساعد.

بل كان للناس جميعا أباً حانيا، وتأكدت أبوته حسًّا ومعنى حين نال بركة العمر، فأصبحوا جميعا أبناءه، إذ يدعو بهذا النداء الأثير من معه من الحضور: "أبنائي الأعزاء". وفي الحضور مَن تجاوز الثمانين، فلا يملكون إلا أن يجيبوه صادقين: "أبانا الروحي".

نسمات الأخلاق السامية:

إخلاص يسير على قدمين:

تميز الشيخ عدون بتواضع فريد، وحب للعمل الدؤوب في صمت وهدوء، لا يريد الضجيج، ولا يرضى بالعمل تحت الأضواء، خوفا من مخاطر الرياء.

ويأبى تواضع الشيخ إلا التنكر للذات، ونسبة الفضل لغيره، واستصغار ما بذل، واعتبار جهاده طيلة قرن من الزمان مجرد قطرة في محيط جهود العاملين، ونكرة في قاموس أعلام الإسلام السامقين.

أجل لقد كان كما يقول عنه العارفون "إخلاصا يمشي على قدمين"، حتى رفض حفلات التكريم التي أريد إقامتها له، ولم يقبل إلا عددا يسيرا منها.

وقد رغب منه أبناؤه إقامة حفل تكريم له احتفاء بجهوده في خدمة العلم والصالح العام، فأبى ذلك، وأصر على رفض الفكرة، ولكنه غلب على أمره تحت إلحاح أبنائه، الذين كانوا قد أعدّوا كل الترتيبات، فرضخ للأمر الواقع، وقَبل به على مضض، وكان ذلك يوم 14 فبراير من عام 2003م. فحضر التكريم والدموع تنهمر من عينيه خشية أن تذهب تضحياته هباء.

كما حظي بتقدير جميع فئات الشعب الجزائري من رئاسة الجمهورية ووزراء الدولة إلى مختلف السلطات الرسمية، واتفق الكل على توقيره وتقديره، والاعتراف بفضله وسابقته.

ثم حملته قلوب علماء الجزائر فاختاروه رئيسا شرفيا لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، اعترافا بفضله وأياديه، وقد كان من مناصري الجمعية والداعين لمباركة جهودها لإيقاظ الشعب الجزائري من ظلمات الجهل، والسعي لتحريرها من نير الاستعمار قبل سبعين سنت خلت، فكافأته حين وضعته تاجا على مفرقها، جزاء وفاقا.

وقد سأله بعض الشباب يوما عن خلاصة عمره في كلمات، فقال:

بعد طول عمر بلغ مئة من السنوات،

- ما رأيت مشروعا قام على الإخلاص وعاقت دون تمامه العقبات.
- وما رأيت أحدا أعطى درهما لله ولم يخلف الله عليه بالنماء والبركات.

يقول الدكتور محمد ناصر:

لعلّ أوّل صفةٍ يتميّز بها الشيخ عدّون وهو في فورة الشباب، ونضارة العمر هو الشيخ عدّون نفسه بعد أن تجاوز المائة من عمره ! ثباتًا على المبدأ، ووفاءً للصداقة، وتفتّحا على كلّ جديد لا يتنافى مع القيم والثوابت الدينيّة والأخلاقيّة، وهو الناظر إلى المستقبل دومًا، المتسامح الذي يفتح قلبه لكلّ أصدقائه وأبنائه وتلامذته وزملائه، لا يحمل غلاً ولا حقدًا ولا حسدًا. وهذه الصفة أي ميزة الإخلاص، وحسن النيّة التي طالما عُرف بها الشيخ عدّون واشتهر، حتّى قال فيه الشيخ عبد الرحمن بن عمر بكلّي: «إنّه الإخلاص يمشي على رجلين» ؛ ومن أجل هذه الخاصيّة ظلّ الشيخ عدّون في الثلاثينات هو الشيخ عدّون في التسعينات محبوبًا من الجميع، ومسيطرًا على الأفئدة لدى الكبار والصغار، الشباب والشيّاب. ونضرب لذلك مثلا: فعندما وقع خلاف حادّ في أوائل الخمسينيات بين الشيخ بيُوض وأحد زملائه وتلامذته حول قضيّة من قضايا الإصلاح الاجتماعي تتعلّقان بسفر المرأة وإصلاحات المسجد، وكادت وحدة القرارة تتصدّع من

جرّائها، كان ضمن المساعي أن تدخّل الشيخ أبو اليقظان بين الشيخ بيُوض ومن اختلف معه في تلك القضيّة، فكتب إليه الشيخ عدُّون في رسالة مؤرّخة بـ 11 جمادى الأولى 1373 هـ موافق لـ 27 جانفي 1953 قائلا:

«... بلغني كتابُك بعد الأخير للإخوان بعد غيبة طويلة، وانتظار طويل وقد سرّ الإخوان، وجماعة العزّابة بسعيكم المبرور في القضيّة الشائكة، نسأل الله تعالى أن يمدّكم بروح منه ويصل بكم إلى نتيجة مُرضِيَة يرتضيها الجميع، تحفظ كيان الإصلاح من التصدُّع، وتغسل ما علق في القلوب من أدران، ولا شكّ أنّ الله تعالى سيصل بنا إلى هذه الغاية ما دام **الإخلاص والنيّة** الحسنة رائد الجميع...».

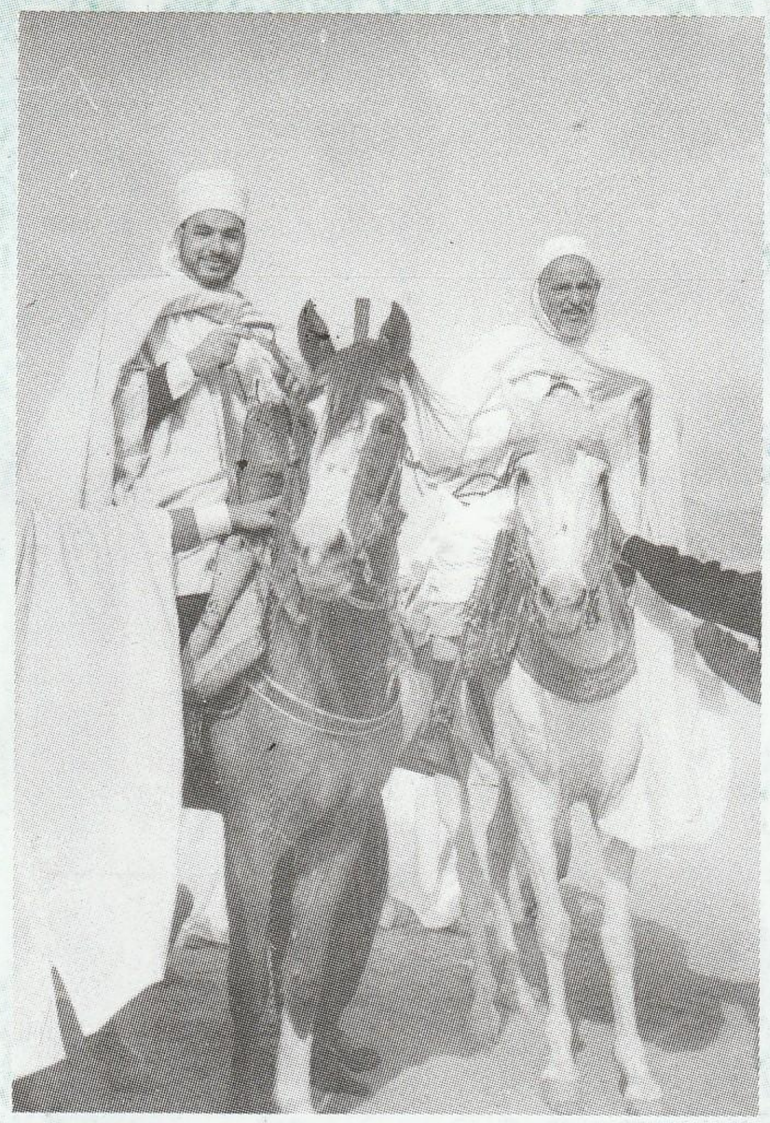

. التواضع:

عادةً ما يكون التواضعُ صفةً مرتبطة بالإخلاص؛ لأنّ التكبُّر مرضٌ نفسيّ يعاني منه مرضى القلوب فقط، ومن ثمّ فإنّ ممّا يلفت النظر في خِلاَلِ الشيخ عدُّون تواضُعُه المذهل أمام أبنائه وتلامذته دون افتعال أو تكلُّف، لأنّ تصرُّفاته تَنِمُّ عمّا يحمل في قلبه الأبيض النقيّ الصافي، ولأنّه يصدُرُ عن أخلاق إسلاميّة عاليّة، وإذا كان ذلك ديدنَه مع تلامذته فأولى أن يكون ذلك تصرُّفه مَع أساتذته وزملائه، وهذه صفةٌ نفسيّة بارزة أخرى نستجليها من رسائله إلى أستاذه الشيخ أبي اليقظان، فقد لاحظتُ في رسائله كيف يوجّه الخطاب الموشّح بالخلق الرفيع: لينُ جانبٍ، وصفاءُ طويّة، واحترامُ مقام، على الرغم من أنّ تَتَلمُذَ الشيخ عدُّون للشيخ أبي اليقظان يُعدُّ اعتباريًّا، فهو لم يتلقّ عنه دروسًا في فصل، إلاّ ما كان بينهما من جلسات حميميّة أدبيّة في النادي أو في السهرات الخاصّة، أو المراسلات، أو ما جمعهما من زمالة طويلة في إطار الصحافة، فهي . إن شئنا القول . علاقة صداقة وزمالة أكثر منها علاقة تلمذة أو أستاذيّة، ولكنّ تواضع الشيخ عدُّون أبى عليه إلاّ أن يخاطب أستاذه وشيخه بما يليق بمقامه العلمي الرفيع: «أستاذنا الجليل العلاّمة»، أو «أستاذي العزيز المجاهد الكبير»، وما انصرف عن هاتين الصيغتين قطُّ في كلِّ رسائله، ومن تواضعه أنّه كان يطلب من أستاذه دومًا أن يصحّح له (الفصول) التي كان يحرّرها لجرائده: «النور»، «الأمّة»، «المغرب» وغيرها، ويفوّضه في اختيار عناوينها، ويلحُّ عليه ألاّ ينشر شيئًا ممّا يَكتُب دون أن يفحصه فحصًا دقيقًا، على الرغم من أنّ الشيخ عدُّون كان كثيرًا ما يعرض تلك المقالات على الشيخ بيُوض قبل إرسالها للنشر. وممّا يدل على تواضعه تعليقُه على الافتتاحيات التي كان يكتبها في بداية الثلاثينات لجريدة «النور» عندما كان الشيخ أبو اليقظان مشغولا بإعداد المطبعة العربيّة كما يقول في رسالة مؤرّخة بـ 20 رجب 1350 هـ.» [1].

انتهى كلام الدكتور محمد ناصر

(1) - من كتاب الدكتور محمد ناصر "مشايخي كما أعرفهم".

تقديس المواعيد:

من الخصال الحميدة التي تميز بها الشيخ تقديس المواعيد، واحترام مواقيتها، فهو دائما مع أول الحاضرين وآخر المنصرفين، لا يعرف الأعذار ولا الاعتذار، إلا ما كان قاهرا منها، فلا يكلف الله نفسا إلا وسعها.

ومن حرصه على المواعيد حضوره لدروس تفسير القرآن الكريم للعلامة الشيخ بيوض في مسجد القرارة، وقد استمرت تلك الدروس خمسا وأربعين سنة من عام 1935 إلى 1980م، لم يتخلف عنها وهو في القرارة إلا يوما واحدا لضرورة قاهرة، وما عدا ذلك فلم يكن يغيب عنها مهما كانت الشواغل والأعراض، تقديرا منه لأهميتها القصوى، ورغبة في فوائدها الجُلّى، فكان أسوة لطلبة العلم في الجد والتحصيل، وقدوة لعامة الناس في علو الهمة وقطع الأعذار.

خفة الروح:

لم يكن الشيخ عدون ممن يتصنع الوقار المتكلف وإن جلله المشيب، وما كان يخيم على مجلسه داكن السحاب الكئيب، بل يشيع فيه جو الأنس وتنطلق من أسارير وجهه بشائر الابتهاج والسرور، وكان خفيف الروح يطرب للدعابة البريئة، فلا ترى في مجلسه إلا روح الانبساط والحبور، يشيع على من حوله من نفحاته ما ينشره في النفس عبير الزهور.

يقول الدكتور محمد ناصر: «وقد عُرف الشيخ عدّون في الأوساط الأدبيّة والثقافيّة بحبِّ النكت الظريفة، يَطرب لها ويتفاعل معها، ويهوى سماعَها، وأحسب أنّ ذلك ما يستوجبه الودُّ الصافي، والمحبّة التي تكون بين الأب وبنيه في نوع من الإحماض والتظرُّف الذي يروِّح عن النفس حتّى لا تكلّ ولا تمل، أكان ذلك في مجالس الدراسة أو من خلال المخاطبات الكتابيّة.

وقد يكون محلّ الدعابة والتفكُّه شخصًا أو صديقًا عُرف لدى الجماعة بروحه المرحة المتبسِّطة؛ مثل السيِّد «تعموت عيسى» رفيق الشيخ أبي اليقظان وصديقه الحميم في مسيرته الصحفيّة. ومن ثمّ تجد أخبار السيِّد تعموت عيسى وأخبار لقمان الحكيم وغيرهما من إخوان الصفاء ترِد من حين لآخر في هذه الرسائل. ولنأخذ لهذا مثلا ما جاء في إحدى رسائل الشيخ عدّون إلى أستاذه حيث يقول:

«... أمّا الأخ تعموت الذي يريد أن يُقَرْقِشَ إلينا بدعوى الاستحمام في الرمل، فإنّ الرمال هذه السنة باردة جدًّا لا تصلح للاستحمام على قلّتها بحيث لا يمكن الاستحمام بها، فإنّ الرياح والزعازع المتوالية في هذه السنة جوفيّة، ألقت الرمال كلّها في (تقرت) (ووادي سوف)، فاقترح عليه أن يحجّ إليها وسيشفيه الله...»[2].

حقًّا، لقد كانت مجالسه باقةً أدبية زاهية الألوان، زكية الشذى، يمازج فيها الجلالَ جمالُ الأدب، وتقترن الحكمة والنصيحة بالابتسامة الوديعة، تراه يتصيد المُلحة ويطرب لها، وينتشي للدعابة البريئة انتعاش الزهر في الروض النضير، إذا سقاه السحاب أو جرى في عروقه ماء الغدير.

2) . رسالة مؤرّخة هكذا (13 جوليت، دون ذكر السنة) غير أنّي أقدر حسب بعض القرائن الواردة بالرسالة أنّها تعود إلى بداية الثلاثينيات أي حوالي (1935) وما قبلها

جهاد الكسب الحلال:

الشيخ عدون ليس شيخ مسجد يجلس في حلقة الدرس لا يعنيه من شأن الحياة شيء، وليس مديرا يتربع على كرسي إدارته، ولا يفهم في معاناة الناس اليومية معنى، بل هو رجل الميدان، عركته الحياة بصروفها، ودفعته الحاجة والدين إلى الاسترزاق من التجارة أجيرا عند الناس، وعمل في الفلاحة زمنا طويلا، فكان ماهرا في تسلق النخيل، وخدمة الأرض.

ومن خفايا جهاده المنسي أنه ظل يدّرس في معهد الحياة ثلاث عشرة سنة دون أجر، وكان معاشه مما يكسبه من عمل النخيل تأبيرا وجذاذا للتمر، وإصلاحا للنخل في الحر والقر.

والنخلة ونتاجها عماد الحياة في الصحراء، وعليها مدار الاقتصاد والعمران، وقد شرفها الله بذكر مبارك في القرآن.

بيد أن عمل النخلة وتسلقها ليس متعة ولا رياضة ترفيهية، فهي من أشق الأعمال والرياضات، ولا يدرك صعوبة ذلك إلا من كابده.

كما كان الشيخ عدون يدرب طلبته على هذه الأعمال، ويحملهم على خدمة النخيل، إعدادا لهم لتحمل مشاق الحياة، وتشويقا لتسلق معالي الأمور. وكلهم قد أفادوا من هذه التربية الميدانية، وذكروا الفضل للشيخ عدون، المعلم الناصح الأمين.

❖ وحان الوداع:

بركة العمر والولد:

منح الله الشيخ عدون بركة العمر والبدن، فكان نسيجا فريدا عجز الطب عن استكناه أسراره، إذ جاوز القرن من الزمان، وما هدّت السنون من تماسكه وسلامته، إلا في شهوره الأخيرة، وقد أجريت له عملية جراحية في رأسه بعد حادث مرور قبل ست سنوات، وتعجب الأطباء كيف سلم له مخه، وحفظ من التلف وقد كان يشكو ضغطا لا يتحمله الإنسان العادي في مقتبل العمر.

أجل، لقد خرق الشيخ عدون كل قوانين الصحة ومحظورات الشيخوخة، وكانت صحته مثار دهشة الأطباء، لا يعرف تحرزا من ماء مثلج، ولا وليمة دسمة، ولا شراب معسول، والدسوم والسكريات قاصمة الصحة في نظر الأطباء، وخبراء العلل، وكأنّه سبر أغوار العلة في قواعد اللغة العربية، وقد قضى في تدريسها سنوات عمره الذهبية، فنفعته لقاحًا واقيا للصحة البدنية، وقد يكون ذلك بعض جزاء الله العاجل في هذه الدار. ولله في خلقه شؤون وأسرار.

وإن تعجب فعجب من طول نفَسه في الجلسات الطويلة، تستمر طول النهار ويمكث فيها على هيئة واحدة من مفتتح الجلسة إلى نهاية اللقاء، بينما ترى بعض الحضور من الكبار، بل ومن الصغار، في تململ من طول الاصطبار، حتى يصرّح مغلوبهم بالاعتذار لقضاء حاجة أو استراحة، والشيخ يخرس بهيئته الجميع، ويجيبهم بحجة صامتة هي أبلغ من أي كلام بديع.

وتلك بعض معاني البركة في الصحة والعمر، كما ناله منها نصيب في المال والولد.

وأفاض الله عليه من متاع الحياة ما قضى به شطرا من دهره ميسورا، وكان مثال الأب الحاني على أبنائه من الصُلب، كما كان مع أبنائه من الروح، وتمثل في بساطته وحدبه على أهل بيته، وبذله قصارى جهده ليسعدهم، رغم توزع جهوده في مهام المجتمع المتكاثرة، فكلل الله سعادته بذرية طيبة، كانوا رجالا لامعين في شتى ميادين الحياة، أحدهم أستاذ جامعي قدير، قضى العمر في تفسير كلام العليم الخبير، وآخر طبيب ماهر خبير، نذر طبه لنفع الأرملة والفقير، وثالثهم خطاط بارع كتب المصحف الشريف ثلاث مرات، صار معتمد العالم الإسلامي في قراءة ورش بين القراءات، وخاتمة العنقود معلم رابط في البلد وظل لوالده سندا ولنهجه في بناء الأجيال مددا.

أزف الرحيل:

تاريخ حافل أَرْبَى على قرن من الزمان، ومسار زاخر بجلائل الأعمال، قطعه الشيخ الراحل بعزيمة وإيمان، وصبر ويقين، لم يحِدْ عنه قيدَ أنملة، على تقلب الأحوال، واشتداد وطأة المستعمرين، وأعوانهم الطامحين، وأذنابهم الطامعين، وبرغم اشتداد الفتن، وتنكر عشاق التسلق في غفلة من الزمن، وقَلْبِ بعضِ اللئام ظهر المجن، فقد ظل وفيّا صامدا، لم تزعزعه الأعاصير، ولم تفتّ من عزمه حبليات الليالي وطوارق الأيام.

مسيرة قرن وخمس سنين، حفلت بآلاف وآلاف، من حلقات علم تقام، ومجالس فكر وذكر تنصب، وجلسات صلح تعقد، وتتواصل أحيانا ليالي وأياما عديدة، ويمتد السهر فيها إلى منتصف الليل أو يزيد. كانت سعيا دؤوبا لصالح الأمة والدين في مختلف الميادين، لا انتظارا لشكر ولا ثناء، ولا نيشان ولا شهادة، إلا رضوان الله وفردوسه الموعود.

وبلغ به الجهد أشده وانهارت قواه البدنية، بيد أنه ظل محتفظا بكامل قواه العقلية رغم إجراء عملية جراحية في رأسه قبل بضع سنين إثر حادث سيارة أليم، ظل نجاح العملية لغزا بمقاييس علم الأطباء، وحفظ الله له وعيه وقلبه وبصيرته، ثم كانت له لقاءات وداع لأبنائه وبناته في مختلف المؤسسات في أواخر أيامه في هذه الحياة، أوصاهم فيها بالتمسك بأهداب الدين، والحفاظ على الوحدة، والاستمساك بالإخلاص والصبر والتضحية، حتى ينالوا رضوان الله رب العالمين.

إلى اللقاء في دار البقاء:

ومضت تلك السنون في صمت عجيب، قضاها الشيخ عدون يصنع مجد الخلود حتى أتاه اليقين، فمضى إلى ربه في شهر القرآن المشهود، مستبشرا بإذن الله بجزائه الموعود، ليلقى الأحبة محمدا وصحبه.

وأسلم الروح إلى بارئها في سحر يوم الثلاثاء 19 رمضان 1425هـ / 2 نوفمبر 2004م وعمره ست ومائة من السنين بالحساب الهجري. وشيعت جنازته في موكب مهيب شهدته القرارة صبيحة الإربعاء 20 رمضان 1425هـ/ الثالث من نوفمبر 2004م، حضرها آلاف المشيعين من مختلف جهات القطر الجزائري، من العلماء والزعماء، والقادة وعامة المسلمين.

أجل، لقد مضى الشيخ عدون إلى وعدٍ طالما تمناه، وقضى العمرَ يعمل له، فما تأفف ولا توانى، ولا تقهقر ولا تنكر، وصدق ما عاهد عليه ربه، وما زادته السنون والأسقام إلا يقينا ومضاء، ودعا ربه وما خاب من أخلص لربه الدعـاء، ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ () ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً () فَادْخُلِي فِي عِبَادِي () وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ .

❖ رسالة الشيخ عدون إلى تلميذه د. محمد ناصر ❖

الحمد لله الذي وحده

القرارة في 14 ذي القعدة 1385 - 06 مارس 1966

ولدي العزيز الأديب محمد صالح بربوشة، السلام عليكم وعلى أبنائي الأعزاء، زرويل، مردوخ، دجال، من الكاتب والدكم عدون بالحاج.

وبعد فقد اتصلت بكتابك الكريم بمناسبة موسم عيد الفطر المبارك يحمل إليّ عواطفك الجياشة، وشعورك الجميل نحو هذا الشخص الضعيف الذي لا يرى نفسه أهلا لما تضعون عليه من أعالي الصفات والمكارم، ولا يرى لما يقوم به من أعمال. إن كانت هنالك أعمال تستحق أن تذكر. قيمة ووزنا يستحقان هذا الاعتبار، ويجدر بهما أن يلزا في قرن مع أعمال الأوفياء المخلصين، ولكن هو الحبّ المكين يستعظم الحقير ويستسمن ذا ورم، وهي عين الرضا تكلّ عن كلّ عيب، وترى الحبّة قبّة، فبورك فيكم من أوفياء مخلصين، وجعلنا الله عند حسن ظنّكم بنا، وبلّغ آمالنا فيكم وأرانا فيكم من الفضائل والمكارم ما تقرّ به أعيننا ويثلج صدورنا، وجازانا أفضل الجزاء في جنات النعيم، لقاء ما علقنا فيكم من آمال كبار وأمنيات جسام، لخدمة هذا الدين الحنيف وإعلاء كلمة الله. حفظكم الله من كلّ بلاء، وصرف عنكم كل سوء، ومتعكم متاعا حسنا دنيا وأخرى. كان الله في عونكم فيما تالمون من خدمة معهدكم، ورفع شأنه ونشر تعاليمه ومبادئه بالاستقامة الكاملة، والتحصيل الوافي والتفاني في خدمة العلم الصحيح، وفي نشره بإخلاص وصدق، فلتكونوا من أبنائه الأوفياء ومريديه البررة، فلا شكّ أنّه أحسن فيكم تأديبه، فأحسنوا فيه وفاءه وجزاءه، وما وفاؤه وجزاؤه إلاّ أن يرى فيكم أحسن مثال لتلاميذ تخرجوا في معهد أسس على تقوى من الله ورضوان، ويسعى لأن يجعل من أبنائه ورثة الأنبياء في أخلاقهم ومكارمهم وتفانيهم في الإرشاد والتوجيه، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، فكونوا ذلك التلميذ المثالي، وما ذلك على الله بعزيز.

أرجو أن تجد هذه الكلمات الصغيرة المبنى الكبيرة المعنى منكم قلوبا واعية، تنفعها الذكرى فأكون قد كفّرت بعض التكفير عن سكوتي عنكم أمدا طويلا، يقدر بالسنوات لا بالشهور رغم توالي رسائلكم إلي في أمثال هذه المناسبات وفي أي مناسبة، وكم كان يحزّ في قلبي هذا السكوت الذي أستنكره من نفسي الاستنكار الشديد، وأبغضه منها كل البغض، وأودّ من صميم قلبي لو عالجت فيها هذا الداء الوبيل، ولكن يقعدني عن ذلك فقد إرادتي وفلول عزيمتي وطبيعتي الكسلى ونفوري من الكتابة نفور الملحد من بيوت الله، تلك عوامل تحالفت علي وجعلتني أسكت هذا السكوت البغيض عن إخوان أوفياء وأبناء أعزاء يقابلونني بالوفاء وأقابلهم بالجفاء، ولي من عطفهم وإخلاصهم وحسن ظنّهم بي خير شفيع ....

.... المعهد في تقدم ونشاط، وفي سير مطّرد في أداء مهمته، وقد تمّ بناء أقسامه الستة الجديدة في اتساع وجمال رائع، وستعمر في الأسبوع الآتي بإذن الله، والأعمال جارية بكل نشاط في توسيع المسجد إلى الناحية القبلية، والخدمات العمومية تجري كلّ أسبوع في السحن ونواحي البلدة والغابة والفوسعه. ويقام طابق علوي في دار البعثة لإيواء التلاميذ الوافدين إليها فقد ضاقت الدار عن استيعابهم وخصوصا بعد قدوم فوجين من أبناء عمان البالغ عددهم أربعة وثلاثين تلميذا، وأكثرهم من الأولاد الصغار المبتدئين فقد ارتأى الإمام. حفظه الله. تنشئتهم وتربيتهم تربية ميزابية قرارية بعد أن أحاط علما بها ودرسها عن كثب في رحلته الأخيرة إلى مزاب.

وأخيرا أكرّر الدعاء لكم بالحفظ والرعاية والهداية إلى أقوم طريق، يسلم عليكم الأساتذة والتلاميذ والأستاذ الشيخ بيوض والشيخ أبو اليقظان، إنّهم في هناء.

والدكم عدون.

TL60127P0002

❖ فهرس محطات الرحلة ❖

❖ المهاد الأول:

1. ظروف النشأة الأسرية

❖ الرسالة المقدسة:

2. الشيخ عدون وقصة معهد الحياة
3. دروس الأخلاق بالمعهد
4. الأنشطة الأدبية بمعهد الحياة
5. علاقة الشيخ عدون بالشيخ بيوض
6. علاقة الشيخ بالأساتذة
7. علاقته بتلاميذه
8. من ثمار معهد الحياة
9. البعثات العلمية إلى القرارة
10. إنشاء المدارس ووحدة التعليم
11. تمويل المشاريع

❖ في الميدان الفسيح:

12. في رحاب الهيئات العرفية
13. في العمل الاجتماعي
14. في ريادة أنشطة الشباب
15. في خدمة الوطن والإسلام

❖ قضايا ومواقف:

16. دفاعا عن لغة القرآن
17. الشيخ عدون والكتاب
18. في رحاب الصحافة
19. المرأة في عين الشيخ عدون

❖ خصال وبصمات :

20. مدرسة الأسفار:
21. في أحضان الأسرة
22. الأخلاق السامية
23. خفة روحه
24. جهاد الكسب الحلال

❖ وحان الوداع:

25. بركة العمر والولد
26. أزف الرحيل
27. إلى اللقاء في دار البقاء

ملحق: رسالة الشيخ عدون إلى تلميذه

د. محمد ناصر

لقد كان الشيخ عدّون في هذه المسيرة أساس البنيان، وإن لم يبدُ للعيان، وكان للشيخ بيّوض وزيرَ صدق في ميادين الجهاد والكفاح، وكم مرّةٍ صرّح فيها الشيخ بيّوض أنّه لولا الشيخ عدّون لما حسم أمورا مصيريّة عديدة في مسيرة الإصلاح الظافرة.

وظلّ الشيخ عدّون طيلة هذه الفترة الحافلة التي امتدّت ستّين سنة كاملة؛ عضد الشيخ بيّوض الأيمن في جهاده الإصلاحي ومشاريعه العلميّة والتربويّة. لم يتخلّ عنه يوما، ولم يتوان عن نصرته ساعةً، حتّى لحِق الشيخ بيّوض بربّه قريرا مطمئنّ البال، فخلفه في ريادة الحركة الإصلاحيّة، ومضى بالسفينة رُبّانًا لها على امتداد رُبع قرن من الزمان...

إصدار جمعية الحياة
وجمعية التراث

القرارة - غرداية - الجزائر

1430هـ - 2009م